أكذوبة "حيث"

د. محمد سامي عبد السلام

* الكتاب: أكذوبة حيث

* تأليف: د.محمد سلام عبدالسلام

* مراجعة لغوية: قسم التحرير والمراجعة بدار المنتدىٰ

* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدىٰ

* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدىٰ

* رقم الإيداع: 27983/ 2022

* الترقيم الدولي: 978-977-6968-89-9

المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان




واتس آب: +20 100 518 6476


فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع

بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع





الفهرس

خامسًا : تقديس الحكم النحوي على الرغم من سقوط العلة سادسًا : التحرير البلاغي لاستعمال (حيث) مع (إن) أو (أن) **الخاتمة** **التعليق والتوثيق**	

المقدمة :

كان دافعي القديم للتفكير في استعمال (حيث) معرفة سبب ميل اللسان إلى فتح همزة (إن) بعد (حيث) مع كثرة المانعين لذلك، لكن وجدتُ وراء (حيث) أمرًا يطول ... وجدتُ وراءها أساليب بلاغية متعدّدة يغمرها تجاهلٌ في النظر، وخللٌ في منطق التفكير، أنتجا خطأً في الحكم، واعتلالًا في الأداء الفصيح ؛ وبدا العوز إلى مداد علم البلاغة ؛ لأنه يميز الأساليبَ بمناسبة المقام ويُشهِر القرائن، وهو العلم المنشغل بصحة إبلاغ الأسلوب لمعنى المعنى؛ فالأسلوب في علم البلاغة اختيار التركيب لمناسبة المقام ولأداء المعنى المراد.

فلقد تناول علماء النحو دراسة (حيث) توصيفًا وتقنينًا ككتاب مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، وأخذتْ منهم بعضُ المعاجم في تعريفها لهذه الأداة، وفي العصر الحديث نجد دراستين في (حيث) إحداهما نحوية صِرفًا هي دراسة د. يوسف جمعة عاشور بعنوان : (حيث) في القرآن الكريم استعمالًا ودلالة ، وتصف الوظيفة النحوية لـ (حيث) في القرآن الكريم ودلالتها على المكان ، والدراسة الثانية دراسة د.عودة خليل أبوعودة ، بعنوان : (حيث) بين ثبات قواعد اللغة العربية وتطور صور الاستعمال، وتلاحظ شمولية (حيث) للمكان والزمان في الاستعمال القديم، وتطور استعمالها للتعليل في العصر الحديث.

ومن قراءة هذه الدراسات وجدتُ عدّة جهات من (حيث) لم تُدرس بعد؛ هذه الجهات تتلخص فيما يلي :

- الدواعي البلاغية لتنوّع استعمال (حيث) في القرآن الكريم، فمثلًا يَرِد أسلوبان في خطاب واحد هما قوله تعالى : " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا" (البقرة: ٣٥) وقوله تعالى : " وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا" (الأعراف: ١٩) كذلك نجد مغايرة لأصل استعمال "حيث" فالأصل توسط (حيث) بين جملتين، والقرآن الكريم في بعض مواضعه يُقدِّم (حيث) والجملة الثانية، أو يبدِّل مكان الجملتين؛ فتنوُّع الأساليب يدفع للتساؤل عن علاقة الأسلوب بمضمون النص الوارد فيه.
- العلاقة بين الاستعمال المجازي في القرآن الكريم لـ "حيث" واستعمالها المجازي في غيره، ورصد تأريخ الاستعمال المجازي لها في غير القرآن الكريم، وكيف تعامل الفكر العربي مع الاستعمال المجازي لـ (حيث) في القرآن الكريم وغيره.

- اضطراب القاعدة النحوية في تعاملها مع قرائن الاستعمال المجازي لـ (حيث) وأثر ذلك على فصاحة الجملة.

إن رحلةَ استعمال (حيث) من القرآن الكريم إلى العصر الحديث رحلةٌ محمّلةٌ بالأساليب المتعدِّدة (انحرافات الاستعمال) ومحمَّلة ببصمات التفكير اللغوي والنقدي عند العرب، وهي تستحق أكثر من رصد الانحرافات وتحليل البصمات؛ إذ تحتاج إلى تصويب التفكير الناقد الذي أوجَدَ عوجًا لا يستقيم مع اللسان الفصيح، ولا يرقى لذكاء الأساليب البلاغية المتدفقة بحيوية السياق.

البداية : الخروج عن الأصل في استعمال (حيث) في القرآن الكريم :

وردت (حيث) في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة تربط فيها بين جملتين ، وإذا ما كان الأصل في الاستعمال هو أن يؤدي اللفظُ أو التركيبُ دلالةً موضوعةً له ، والخروج عن الأصل هو استعمال التركيب في موضع يناسب دلاليًا تركيبًا آخر؛ فإن القرآن الكريم في استعماله (حيث) زاوج بين الأصل والخروج عليه، فالأصل استعمال (حيث) للدلالة على الظرفية المكانية المستقرة، واستعمال (من حيث) للدلالة على الظرفية المكانية الانتقالية ، مع توسط (حيث) أو (من حيث) جملتين تقع الأولى التي قبلها في مكان وجود الثانية التي بعدها، كما هو في قوله تعالى: ((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)) (البقرة: ١٩١) فيقع فعل القتل مكان الظفر بالأعداء ، ومثل قوله تعالى: ((ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ)) (البقرة: ١٩٩) فالآية تفيد انتقال الحدث الفعلي (الإفاضة) من مكان إلى مكان، ويبدأ الانتقال من مكان إفاضة الناس.

وجاء الخروج عن الأصل لدواعٍ بلاغية تناسب مضمون السياق ، ويؤدي هذا الخروج عن الأصل معنىً آخر لا يتحقق بالأصل يريد السياق إيصاله للمتلقي ، وذلك في الصور الآتية :

الصورة الأولى : (من حيث) موضع (حيث) :

وردت بُنية "من حيث" في القرآن الكريم ست عشرة مرة ، والأصل استعمال تركيب (من حيث) لدلالة انتقال الحدث (الفعل) الذي يسبق (حيث) من مكان إلى آخر ، مثل قوله تعالى : ((وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ)) (الأعراف: ١٨٢) ولذلك يأتي الحرف "من" الذي يفيد ابتداء الغاية[١] ، وبذلك لا يمكن أن تفيد "حيث" معنى الظرفية المستقرة "في" لاعتراض هذا المعنى مع معنى "مِن" الداخلة على "حيث" ، فتركيب (من حيث) يفيد انتقال الحدث (أو ما أسميه الظرفية المكانية الانتقالية) وبهذه الدلالة استعمل القرآن الكريم (من حيث) في المواضع الآتية: (البقرة:١٤٩) (البقرة:١٥٠) (البقرة:١٩١) (البقرة:١٩٩) (الأعراف:١٨٢) ومثلها (القلم:٤٤) (يوسف:٦٨) (النحل:٢٦) ومثلها (النحل:٤٥) (الزمر:٢٥) (الحشر:٢) (الطلاق:٣) فوافق الاستعمال الأصل الموضوع له اثنتي عشرة مرة، وخرج استعمال (من حيث) عن الأصل في أربعة مواضع ، إذ جاءت مع أفعال تفيد الاستقرار لا الانتقال ، فكان الأصل فيها استعمال (حيث) وذلك لأسباب بلاغية ترجع إلى السياق، هذه المواضع هي :

✓ (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) (البقرة: ٢٢٢)

كان من الممكن أن تكون هذه الآية : فآتوهنّ حيث أمركم الله ، ولهذه الصيغة الأخيرة حُجّتها لأن إتيان المرأة يكون في موضع محدد ، وهو يناسب دلالة "حيث" (بدون حرف الجر) على المكان الذي يستقر فيه الحدث ، لكن الآية الكريمة رمت إلى دلالة أبعد من ذلك ، فجاءت ببُنية "من حيث" في هذا السياق ليكون هناك ازدواجًا دلاليًا (الحقيقة والمجاز) وتظهر هذه الازدواجية من اختلاف المفسرين في معنى "من حيث" في هذه الآية ، فيقول الرازي : ((اخْتَلَفُوا فِي الْمُرادِ بِقَوْله تَعَالَى: "فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" وَفِيه وُجُوهٌ الْأَوَّلُ: وهو قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ومُجَاهِدٍ وَإِبْراهِيمَ وَقَتادَةَ وَعِكرِمَةَ: فَأْتُوهُنَّ فِي الْمَأْتَى فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَلَا تُؤْتُوهُنَّ فِي غَيْرِ الْمَأْتَى، وَقَوْلُهُ: "مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" أَيْ فِي حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ، كَقَوْلِهِ: "إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ" (الْجُمُعَةِ:٩) أَيْ في يَومِ الْجمعةِ. الثَّانِي: قَالَ الْأَصَمُّ والزَّجَّاجُ: أَيْ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيثُ يَحِلُّ لَكُمْ غِشيَانهُنَّ، وذلك بأن لا يكنَّ صائماتٍ، وَلا مُعتَكِفَاتٍ، ولا مُحْرِمَاتٍ. الثالث: وهو قول محمد بن الْحَنَفِيَّةِ فَأْتُوهُنَّ مِن قِبَلِ الْحَلالِ دُونَ الْفُجُورِ، والأَقربُ هو الْقولُ الأولُ لأَنَّ لَفظةَ (حَيثُ) حَقِيقَةٌ فِي المكانِ مَجازٌ فِي غَيرِهِ.))[٢] فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنها تفيد معنى الظرفية المكانية المحددة/ المستقرة (في) ، وذهب آخرون إلى أنها تفيد معنى الانتقال المأخوذ من معنى حرف الجر "مِن" ، وأشكل عليهم كيف يكون معنى الانتقال في هذه الآية التي تأمر بالإتيان في موضع محدد ؛ ولذا لجأوا إلى القول بأن الانتقال معنوي من حال إلى حال ؛ فلا تفيد "حيث" المكانية المحددة ، وهو ماعدّه الرازي مجازًا عن الظرفية المكانية ، ويرجِّح الرازي بأن تكون (من حيث) بمعنى (في) خلافًا لظاهر الآية ؛ لأن هذا المعنى (في) هو الحقيقة بالنسبة لـ (حيث) ، والحقيقة أولى من المجاز عنده، وكذلك رأى أبو حيان ، فيعقب على آراء المفسرين بقوله: ((والأول أظهر، لأن حمل: حيث، على المكان والموضع هو الحقيقة، وما سواه مجاز))[٣] فالرازي (٦٠٦هـ) وأبوحيان (٧٤٥هـ) يلحظان الانحراف التركيبي ويوصلانه إلى درجة المجاز ، لكنهما يقدمان حقيقة معنى (حيث) التي تفيد (المكان المحدد) على دلالة انحراف التركيب (من حيث) الذي يدلّ على الانتقال في مضمون آية تفيد المكان المحدّد المستقر، بينما نجد الألوسي (١٢٧٠هـ) يذكر حجة الرأي الثاني الذي يري معنى الانتقال المعنوي، فيقول: ((وقال الزجاج: معناه من الجهات التي يحل فيها أن تقرب المرأة ، ولا تقربوهن من حيث لا يحل كما إذا كن صائمات أو محرمات أو معتكفات ، وأيّد بأنه لو أراد الفرج لكانت (في) أظهر فيه من (من) لأن الإتيان بمعنى الجماع يتعدى بها غالبًا لا بـ "من"))[٤] وهكذا يظهر في الآية وجود معنيين أحدهما حقيقي والآخر مجاز.

وهذه الآراء تكشف لنا عن عدم تقبّل العقل النقدي لرصد التغيير الدلالي الحاصل لـ "حيث" من الدلالة على الظرفية المكانية "في" إلى معنى آخر بدخول "من" عليها ، على الرغم من أن "حيث" في أصلها بمعنى مكان ، ووقوعها ظرفًا بمعنى "في" أمرٌ مرجعه إلى التركيب النحوي، لا إلى معنى (حيث) في ذاتها، فالعقل العربي النقدي يتحفظ كثيرًا في قبول التحولات الدلالية والاعتراف بالمجاز ، ويرى أن التفسير (أو حتى التحايل) المفضي إلى المعنى الحقيقي أولى من قبول (وصمة) الاتساع في المعنى ، لأنه لا يجمع بين الحقيقة والمجاز فهما في تكوينه المعرفي متقابلان ، فإشكالية منافاة المجاز للحقيقة بدت ظاهرة هنا في تأويل المفسرين ، لكن لماذا نندَّفع وراء هذه الإشكالية الميتافيزيقية / الافتراضية ؟! فمن الممكن وجود المعنى الحقيقي مع تحميله بالاتساع الدلالي للمعنى الحقيقي كدرجة من درجات المجاز.

فمن هذه التأويلات لمعنى الآية ندرك أن بُنية "من حيث" هنا محمّلة ببعد دلالي لتؤطِر دلالات في السياق مرادة بذاتها ؛ فالسياق يؤكد على أن مكان الجماع هو الحرث (موضع النسل) " نساؤكم حرث لكم" وعليه يكون غرض الجماع بدايته من هذا المكان ثم ينتقل ليحقِّق هدفه بتكوين خلْق آخر ، فتنتقل النطفة من هذا المكان إلى مكان آخر ليقدر الله تعالى لها ما يشاء، فتكون متنقلة بين أطوار الخلق مضغة ثم علقة ... ثم إنسانًا مستقلًا عن أبويه ، فدلالة الانتقال مقصودة في السياق ، متحققة من معنى الآية " آتوهن من حيث أمركم الله" لأنه موضع الانتقال، بل وفي وقت الطُّهر الذي يسمح بهذا الانتقال .

ففضلًا عن دلالة انتقال المرأة من حال الحيض إلى حال الطهر والجماع ، وتعدّد جهة الجماع في موضع واحد ، كما أشارت إليه الآية الكريمة : (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ) (البقرة : ٢٢٣) - فضلًا عن ذلك - فإن السياق يتحدث عن دلالتين : الأولى: إتيان المرأة في موضع محدّد، وهو ما تناسبه صياغة : فآتوهنَّ حيث أمركم الله ، والثانية: الجماع من أي جهة في المكان الذي يكون فيه الحرث / النسل ، وهو ما تناسبه بُنية "من حيث" خاصة وأن السياق يتحدث أيضًا عن تحريم الجماع وقت الحيض الذي لا يحدث فيه النسل ، فالسياق الذي جاء بكلمة "الحرث" ليدل على الغرض من الجماع ؛ تحدَّث عن الجماع وقت الطهر الذي يمكن معه حدوث النسل ، فهذا التوجُّه من السياق في إظهار الغرض من الجماع (النسل / انتقال النطفة لخلْقٍ آخر) مع إباحة تعدّد جهة الجماع توجُّهٌ يقويه دلالة بُنية "من حيث" الدالة على الانتقال.

بل الممكن أن نقرأ دلالة الانتقال من ظواهر إعجازية في القرآن الكريم ، فمن العجيب أن آية "فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" (البقرة :٢٢٢) يقترب البناء التركيبي فيها من قوله تعالى : " وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ " (يوسف :٦٨) ولنتخيّل جدلًا - وللقارئ حق الرفض - أن ثمة تشابه دلالي بين الموضوعين:

- جماع المرأة - في مكان محدد من جهات متعددة - من أجل الحصول على الزيادة في النسل (الحَمل) سورة البقرة.
- دخول مصر - وهو مكان محدد من أبواب متفرقة - من أجل الحصول على الزاد (نزداد كيل بعير) سورة يوسف.

قد يكون هذا الافتراض مجرد تشابه متخيَّل بين المرأة ومصر وكلاهما حرث ، ساعد عليه البناء التركيبي ودلالة الدخول إلى مكان من جهات ... لكن هذا الافتراض جاء مصحوبًا بدلالات رقمية عجيبة ، فآية سورة البقرة "آتوهن من حيث أمركم الله" هي الآية رقم (٢٢٢) في السورة رقم (٢) وهذا الرقم هو أول رقم زوجي حقيقي فالصفر لاشيء ، ورقم (٢) هو حاصل تزاوج واحد وواحد ، فترقيم آية "فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" في المصحف (٢٢٢/٢) وهو رقم كل عنصر منه يدل على الزوجين (معنى الآية) بل إن في تكرار كل عنصر أربع مرات توافق مع العدد المسموح للمسلم الزواج منه ، فإذا صح ذلك فهذه إشارة إلى علاقة الرقم (٢٢٢/٢) بالمعنى ، فإذا قسمنا رقم سورة البقرة (٢) على رقم الآية (٢٢٢) يكون الناتج (١١١) وهو حاصل عدد آيات سورة يوسف التي وردت فيها آية: "وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ" (يوسف:٦٨) وإذا بحثنا عن رقم آية سورة يوسف (٦٨) في سورة البقرة نجده قوله تعالى: " إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك" (البقرة:٦٨) ومعنى هذه الآية في سورة البقرة : أن البقرة ليست بكبيرة هرمة ولا صغيرة بكر ، وهذا الوصف نفسه يكون للمرأة المتزوجة التي لم ينقطع عنها الحيض ، وهي المرأة المراد الحديث عنها في قوله تعالى : "فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" (البقرة :٢٢٢) ، ومعنى ذلك أن رقم آية سورة البقرة (٢٢٢/٢) يشير إلى عدد آيات سورة يوسف ، ورقم آية سورة يوسف (٦٨) " وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ " (يوسف:٦٨) هو رقم آيةٍ في سورة البقرة تحمل وصف حالة المرأة في "فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" (البقرة:٢٢٢) ولا يُغفل أن مصر في سورة يوسف مصدر حرث " تزرعون " وصرّحت السورة بقمحها وبقرها ، وسورة البقرة تحمل اسم البقرة وقصتها ، والمرأة فيها "حرث" وبذلك يأتي تقارب البناء التركيبي بين الآيتين مع تشابه في الانتقال إلى موضع محدد من جهات متعددة

وحصول الزيادة (بالنسل أو حمل / كيل البعير) عن طريق الحرث مصحوبًا بإشارات رقمية تربط بين الموضوعين في السورتين ، وكلاهما يوضح دلالة الانتقال إلى الحياة الجديدة كما انتقل بنو إسرائيل إلى مصر .

✓ ((وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)) (الأعراف:١٩)

استعمل القرآن الكريم (حيث) في سورة البقرة و (من حيث) في سورة الأعراف في خطاب واحد، وذلك في قوله تعالى : ((وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)) (البقرة:٣٥) وفي قوله تعالى: ((وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)) (الأعراف:١٩) وبذلك لدينا موضعان توحّدا في المضمون وتبدّلا في النسق، وهو ما يوضِّح الاختلاف الدلالي المقصود التوجّه إليه في السياق القرآني عند استخدام بُنية "حيث" أو بُنية " من حيث" .

ونجد في الدراسات التي تناولت المتشابهات ما يحدد الاختلاف بين السياقين ، وإن تنوعت هذه الدراسات في دراسة جزئيةٍ بعينها من السياق دون الأخرى ، فنجد كلًا من الإسكافي والكرماني والرازي والزركشي[٥] ينطلقون في قراءتهم للسياق من الفرق بين العطف بالواو على "اسكن" والعطف بالفاء الدالة على ترتّب ما بعدها (كالجزاء) على السكن ، فالإسكافي يستفيد من دلالة حرف العطف الواو في آية سورة البقرة على اختلاف معنى (اسكن) فهي في سورة البقرة بمعنى الإقامة مع طول اللُّبث ، فالمراد تهيئة المكان قبل الدخول سكنًا وأكلًا ، أما الفاء فدلت على اتخاذ سكنٍ في المكان وكل ما يترتب عليه من احتياجات، فيقول: ((وبقي أن نبيّن المراد بالفاء في قوله تعالى: من سورة الأعراف (فكلا من حيث شئتما) مع عطفه على قوله (اسكن) وهو أن (اسكن) يقال لمن دخل مكانا، فيراد به : الزم المكان الذي/ دخلته ولا تنتقل منه، ويقال أيضا لمن لم يدخله : اسكن هذا المكان، يعني ادخله واسكنه، كما تقول لمن تعرض عليه دارا ينزلها سكنى فتقول: اسكن هذه الدار فاصنع فيها ما شئت من الصناعات، معناه: ادخلها ساكنا لها فافعل فيها كذا وكذا ، فعلى هذا الوجه قوله تعالى في سورة الأعراف: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا) بالفاء ، فالحَمْل على هذا المعنى في هذه الآية أولى ، لأنه عز مِن قائل لما قال لإبليس : (اخرج منها مذءوما مدحورا) (الأعراف : ١٨) فكأنه قال لآدم : اسكن أنت وزوجك الجنة، أي: ادخل، فيقال: اسكن، يعني ادخل ساكنا، ليوافق الدخول الخروج، ويكون أحد الخطابين لهما قبل الدخول، والآخر بعده))[٦] فالإسكافي لاحظ أن سياق سورة البقرة يفيد تهيئة المكان والإقامة فيه ، ففيه أمر مسبق بالسكن والأكل، بينما يفيد سياق سورة الأعراف

مرحة تالية ، ففيه اتخاذ متطلبات السكن فجاءت الفاء لتفيد الترتيب والتعقيب ، ولهذا ذكر ابن جماعة أن سياق سورة البقرة أعم من سياق سورة الأعراف، فهو أمر بالإقامة في الجنة قبل الدخول ، ويجعل ذلك مستفادًا من الفرق بين "حيث" و"من حيث" ، فيقول : ((فأتى بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكنى المأمور باتخاذها ؛ لأن الأكل بعد الاتخاذ ، و(من حيث) لا يعطي عموم معنى (حيث شئتما)))[٧] ولعل ما ذكره الإسكافي وابن جماعة يدل على أن سياق سورة البقرة الجزء الأول من قصة دخول آدم للجنة ، وسياق سورة الأعراف الجزء الثاني للقصة .

أما ابن الزبير الغرناطي فيُفَصِّل الفرق في دراسته لهذه المتشابهة خاصة فيما يتعلّق بجزئية "حيث" و"من حيث" يقول : (("من حيث شئتما" يحرز ويعطي إباحة الأكل من ثمر كل موضع فيها ، أما "حيث" إذا لم يكن معها "من" فإنها تعطي بأظهر الاحتمالين إباحة الأكل في كل موضع ، لا من ثمر كل موضع))[٨] وبهذا يضع ابن الزبير فارقًا آخر بين السياقين ، فسياق سورة البقرة يدل على إباحة الأكل في أي مكان ، وسياق سورة الأعراف يدل على إباحة المأكول ، وما ذكره ابن الزبير يتيح لنا القول بأن حديث سورة البقرة عن المكان كان للاستقرار أو كما قال الإسكافي ((المقام مع طول اللبث))[٩]، وحديث سورة الأعراف عن المأكول كان عن وضع التشريع ، وبمخالفته حدث النزول إلى الأرض .

وإذا عدنا إلى السياقين في كلتا السورتين سنجد قرائن تؤكد اختلاف كل واحد عن الآخر ، ليكون لكل سياق توجّه دلالي :

- ففي سياق سورة البقرة تفصيل حوار المولى عز وجل مع الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام ، من قوله تعالى: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)) (البقرة:٣٠) إلى الآية (٣٥) وفي مقابل هذا التفصيل في سورة البقرة نجد في سورة الأعراف التصريح مرتين بأمر خروج إبليس ((فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)) (الأعراف: ١٣) وقوله تعالى : ((اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)) (الأعراف :١٨) وهذا ما لانجده في سورة البقرة .
- ونجد تفصيلًا في سورة الأعراف لغواية إبليس لآدم وحواء عليهما عليهما السلام ، فبينما تذكر سورة البقرة تلك الغواية إجمالًا ((فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)) (البقرة : ٣٦) نجد في سورة الأعراف حوار إبليس معهما وتفصيل الغواية في سورة الأعراف : ((فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا

وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ* فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ)) (الأعراف : ٢٠-٢١)

- وكذلك نجد في سورة الأعراف تفصيل خروج آدم وزوجته من الجنة بوصفٍ يربط بين خروجهما وبني آدم على الأرض: ((فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)) (الأعراف:٢٢) ثم تتجه سورة الأعراف بعد ذلك للتشريع لبني آدم على الأرض مع الربط الصريح بقصة آدم وتعري السوءة عند النزول، يقول تعالى: ((يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ)) (الأعراف:٢٦) ويأتي سياق سورة الأعراف بالتحذير من وسوسة إبليس على الأرض ((يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)) (الأعراف:٢٧) وهو ما يرتبط بما جاء في أول السياق : ((قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ)) (الأعراف:١٦ـ ١٧)

إذًا نحن أمام معطيات دلالية واضحة في سورة الأعراف تفيد أننا أمام الجزء الثاني من قصة خلق آدم وحواء ونزولهما إلى الأرض ، فبينما تتحدث سورة البقرة عن خلقهما وما قبل الخلق بتفصيل أكثر ، تتحدث سورة الأعراف عن خروجهما من الجنة بتفصيل أكثر، ابتداءً من طرد إبليس ليحرص على غواية آدم وحواء وبنيهما، وبسط سبل الوسوسة ليخرجهما من الجنة، وتصور السورة مشهد النزول بما فيه من تقابلات تعري السوءة والإسراع لسترها من ورق الجنة ، ليعقب هذا التقابل (السوءة / الجنة) الحديث عن التشريع (الحلال والحرام) على الأرض مع صراع الفتنة نفسها (فتنة إبليس) فسياق سورة الأعراف هو سياق الانتقال إلى الأرض.

وإذا ما كانت القرائن بهذا الوضوح على دلالة الانتقال ، فإن هذا السياق الذي تحدث عن الانتقال إلى الأرض بالتفصيل آثر تركيب ((فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)) على تركيب ((وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)) لينتقل من الدلالة الجزئية إلى الدلالة الكلية للسياق في توافق وانسجام ، فإذا كان حرف العطف الواو (في سورة البقرة) يدل على مشاركة الفعل (كلا) للفعل (اسكن) وحرف العطف الفاء (في سورة الأعراف) يدل على ترتّب الفعل (كلا) عقب الفعل (اسكن) فإن هذه الدلالة الجزئية تناسب حديث سورة البقرة عن الجزء الأول من القصة ؛ فحرف العطف الواو الدال على المشاركة الزمنية يحيل فعل الأمر بالأكل لأول عهد السكن بالجنة (بداية القصة) فهو أمر غرضه إباحة الجنة لهما ، يتضمن الإخبار بما أُعِدّ لهما في الجنة ، وحرف العطف

الفاء الدال على التعقيب والترتيب في سورة الأعراف يشير إلى حدثٍ متأخرٍ عن السكن (مرحلة تالية من القصة) فكأنه إخبار عمّا سيحدث بعد دخولهما الجنة ويتسبب في خروجهما ، وليس على حقيقة طلب الفعل كما هو في (وكلا) فهناك فرق بين قول معلمٍ لتلميذه: "ادخل الامتحان وأجب عن الأسئلة" وقوله مرة أخرى : "ادخل الامتحان فأجب عن الأسئلة تنجح" ففي الجملة الثانية إخبار عن نتيجة تتحقق من تتابع الأحداث .

وكذلك تعامل السياق مع الدلالة الجزئية لبُنية "حيث شئتما" الدالة على إباحة الأكل في المكان ، وبُنية "من حيث شئتما" الدالة على إباحة المأكول ، فبُنية "من حيث" لا تأتي في سياق سورة الأعراف لهذه الدلالة الجزئية (إباحة المأكول ، المأخوذة من دلالة حرف الجر على التبعيض) وحسب ، وإنما تأتي بُنية "من حيث" في سياق سورة الأعراف لتناسب وترشّح دلالة الانتقال المرادة في هذا السياق ، فالسياق ينتقي التركيب بدلالته الجزئية لينطلق بدلالة "من حيث" على المكانية المتنقلة إلى الانسجام في دلالة السياق كله على الانتقال إلى الأرض ، فبنية "من حيث" توافق معنى دلالي هدف إليه السياق في سورة الأعراف ، واختلف فيه عن سياق سورة البقرة الذي توجّه إلى الحديث عن بداية الخلق والدخول إلى الجنة ، فناسبه "حيث" الدالة على الظرفية المكانية المستقرة ، وهكذا يأتي السياق القرآني بصيغة دون الأخرى لتناسب دلالتها الجزئية المعنى العام في السياق .

- ✓ ((يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)) (الأعراف : ٢٧)

تثير هذه الآية تساؤلًا عن معناها كما أنها تجاوب عن تسائل في السياق ، وارتبط ما تثيره هذه الآية ببُنية (من حيث) إذ أن لنا أن نسأل عن معنى الآية أو معنى رؤية الشيطان لنا ، كيفيته وعلّته ، بطريقة أخرى تناسب البحث هنا ، هذا السؤال هو ما الفرق بين صيغة (إنه يراكم هو وقبيله حيث لا ترونهم) و الآية (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) ؟ بداية من الممكن تحديد الفرق بينهما من خلال معنى الظرفية ومعنى حرف الجر ، فمعنى (إنه يراكم هو وقبيله حيث لا ترونهم) يراكم هو وقبيله وأنتم في المكان الذي لا ترونهم منه ، أي أن الشيطان يراكم في المكان الذي تواجدتم فيه ، ومعنى الآية (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) يراكم هو وقبيله من مكان لا ترونه منه ؛ فهذا التركيب (من حيث) يدل على أنّ المراد ليس مجرد الإخبار عن رؤية الشيطان لنا ونحن في المكان الذي لا نراهم منه أو فيه ، وإنما تدلّ

"من حيث" على أن الآية تخبر عن رؤية الشيطان وقبيله لنا وهم في حيز مكاني منعزل عنا أو جهة أخرى لانراهم منها ، كما تفيد "من حيث" تنقُّل الشيطان من جهة لأخرى لأنها تدل على مجيئه من الجهة التي تمكِّنه من رؤيتنا ، لكن ما فائدة الإخبار عن مجيء الشيطان من جهة مغايرة لحيز وجود الإنسان ؟ هنا تتضح علاقة هذه الآية بالسياق ، فأن تدلّ الآية على وصول رؤية الشيطان لنا من جهة يرانا منها ولا نراه منها ، هو ما يفسره قوله تعالى في سياق الآيات في السورة نفسها : ((قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)) (الأعراف: ١٦-١٧) إذًا فالشيطان يتنقل في جهة رؤيته لنا ، وتأثيره وحرصه على وسوسته من مكان لآخر، أو من جهة إلى أخرى ، فليس الغرض من قوله تعالى ((إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)) الدلالة فقط على رؤيته لنا وعدم رؤيتنا له ، وإلا لكان التركيب "حيث لاترونه" وإنما جاء تركيب "من حيث" لأن الرؤية هنا هدفها الأول الترصد لبني آدم لغوايته ، ومعرفة نقاط ضعفه وما يغريه ، وما يفعله لينزلق من فعله إلى فعلٍ آخر حرام ، هذا هو الهدف من الرؤية ، فليست رؤية الشيطان لنا مجرد اطلاع على أفعال الإنسان وسكناته ، ولكنها رؤية موظفة للغواية ، فلا بُدَّ أن تتنقل من جهة إلى أخرى كما يتنقل المحتال في إغرائه ، ويتلوّن في أقواله ، فيأتي للضحية من كل مسلك في القول والغرض، وهذا هو ما بينته الآية ((لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ...)) وجاء تركيب "من حيث لايرونه" مصدقًا لهذا المعنى ، فالشيطان يرانا من جهات متعددة ويتنقل من جهة لأخرى ، وهو ما يناسبه "من حيث" ولا تناسبه "حيث" الظرفية بدون حرف الجر لدلالتها على معنى "في" أي الاستقرار في المكان.

ووجه آخر للتناسب ، وهو علاقة تركيب "من حيث" في قوله تعالى " إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" وسياق قصة آدم وحواء عليهما السلام ، فالقصة تُقدّم تساؤلًا : كيف وسوس الشيطان لهما وقد طُرد من الجنة ؟ ونجد قوله تعالى : " إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" يُظهر قدرة الشيطان على الرؤية من جهة تغاير الجهة التي نحن فيها ، وبهذا يمكن تفسير رؤية الشيطان لآدم وحواء عليهما السلام وهما في الجنة مع أنه طُرد منها ، فلقد استطاع الشيطان رؤيتهما وهو خارج الجنة ، ولعلّ ضمير الغيبة (هو) في الآية " إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" يشير إلى القدرة على الرؤية من حيز مكاني آخر غير متواجد فيه ، فالشيطان يمكنه رؤية الإنسان من مكان غير متواجد فيه ، ولايمنع ذلك من إمكانية تواجد الشيطان مع الإنسان في مكان واحد مع اختلاف حيز كل منهما ، مثلما يحدثُ الآن عن طريق وسائل الرؤية والتواصل عن بُعد ، فمع أن الإنسان يمكنه رؤية صديقه وكل منهما في مكان

مختلف ، يمكنه كذلك التواجد معه في المكان نفسه ، مع الفارق في أن إمكانية تواجد الشيطان في مكان تواجد الإنسان يكون مع وجود حيز أو حدّ لكل منها ، كالحجاب أو الحاجز الشفاف الذي يرى من بداخله من هو خارجه وليس العكس.

وقياسًا على عدم تواجد الشيطان في الجنة وقدرته على رؤية الإنسان ووسوسته تكون رؤيته للمصلين في المسجد دون دخوله فيه ، والسياق يمتد في خطابه لبني آدم آمرًا بأخذ الزينة عند كل مسجد ، يقول تعالى : " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف :٣١) وهو سياق متصل بالآية ((يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)) (الأعراف : ٢٧) لأن تغطية السوءة - كما بيّن السياق - بالستر الحسي (لباس الريش) أو الستر المعنوي (لباس التقوي) في مواجهة نزع الشيطان لستر بني آدم ؛ هو ما تحدثت عن الآية التي تأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، فأخذ الزينة باللباس و الوضوء ستر حسي ، فالوضوء طهارة من السوء ، والصلاة في المسجد تقوى فهي ستر معنوي ، ويأتي الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد مع الأمر "كلوا واشربوا" دون إسراف ، وهو ما يشبه فتنة آدم وحواء في الجنة ؛ فقد كان الأمر لهما بالأكل دون الاقتراب من الشجرة ، فالآية " خذوا زينتكم ..." ترتبط بالآية ((يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)) (الأعراف : ٢٧) فإذا كان تركيب "من حيث" يظهر قدرة الشيطان على رؤية الإنسان ووسوسته من جهة أخرى وتنقله من جهات عدة دون أن يلزم ذلك تواجده في مكان الإنسان ، فهو بذلك يجيب على تساؤل كيف للشيطان أن يرى أو يوسوس للإنسان في عبادته وهو في المسجد ، وبذلك يمكن للشيطان وهو في حيز طبيعته التي تختلف عن طبيعة الإنسان وحيز تواجده أن يرى الإنسان، دون اختلاط بين الحيزين مثل قوله تعالى " مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ " (الرحمن : ١٩-٢٠).

وإذا كانت ثمة علاقة تناسب بين الآية التي ورد فيما تركيب "من حيث" والآية التي ورد فيها ذكر المسجد ؛ فإن رقم الآية التي ورد فيها تركيب "من حيث" هو (٢٧) وهو رقم ذو صلة بالصلاة في المسجد لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "صَلاَةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاَةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً "[١٠] فالرقم (٢٧) يشير إلى العلاقة الدلالية بين الآيتين ، ولعل من فائدة الربط بين الآيتين ما للصلاة من عصمة من فتنة الشيطان.

وبذلك نجد أن تركيب "من حيث" بدلالته على رؤية الشيطان للإنسان من جهة أخرى وتنقله بين الجهات قد أفاد تناسبًا مع ما ذكره السياق من حرص الشيطان على الإتيان للإنسان من جهات متعددة ، ويتناسب مع رؤيته للإنسان وهو في الجنة أو المسجد دون أن يلزم ذلك تواجده في حيز المكان ، فالتواجد والاستقرار في المكان تناسبه "حيث" بدون حرف الجر .

- ✓ ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ)) (الطلاق : ٦)

نجد خلافًا في تفسير هذه الآية ، ففي الآية أمر بإسكان المطلقة ، لكن هل تسكن المطلقة في سكن زوجها أو في سكن آخر يوفره لها ؟ والإجابة على هذا السؤال يتوقف على نوع المطلقة وهو ما لم تصرِّح الآية به ، ويكاد تركيب (من حيث) أن يوجِّه هذا الخلاف ، وقد أشار المفسرون إلى عدم القطع في تحديد معنى حرف الجر في تركيب (من حيث) وبه أشكل عليهم تحديد المعنى ، فيقول الزمخشري : ((فإن قلت : (مِن) في (مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ) ما هي؟ قلت: هي (مِن) التبعيضية مبعضها محذوف معناه: أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم، أى بعض مكان سكناكم، كقوله تعالى "يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ" أى بعض أبصارهم... فإن قلت: فقوله "مِنْ وُجْدِكُمْ" ؟ قلت: هو عطف بيان لقوله "مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ" وتفسير له، كأنه قيل: أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه))[١١] فقد لاحظ الزمخشري وجود إشكاليتين في تفسيره للآية عالجهما بصيغة السؤال والجواب ، هاتان الإشكاليتان هما : الأولى : كيف يشمل مراد الآية سكن المطلقة الرجعية (التي لا تخرج من بيت الزوجية كما أمرت أول السورة) والآية تقول "مِن حيث" الدالة على سكن آخر ؟ وأجاب الزمخشري عن هذه الإشكالية بأن (مِن) للتبعيض ... وهو تبرير هش؛ لأن بعض مكان السكن معناه المكان المنفصل عنه ، والرجعية ينبغي أن لا تنفصل في سكن آخر لعل بقاءَها يكون سببًا في استمرار الحياة الزوجية ، ولذلك تسكن الرجعية في سكن الزوجية نفسِه ، وأظنُ أن فيما ذكره الزمخشري تحامُل ليجمع بين سكن المطلقة الرجعية التي لا تخرج من سكن الزوجية ودلالة "من حيثُ" على السكن في مكان آخر ، وهذا التعارض (الإشكالية) قد استشعره الزمخشري بدليل رده على التساؤل الذي افترضه عن معنى (مِن حيث) ويدل هذا على أنه أدرك وجود دلالة الانفصال في المكان من تركيب (مِن حيث) ولو كان احتمالًا يرفضه ، وقد استدل الزمخشري على صحة رأيه بقول قتادة قائلًا : ((قال قتادة: إن لم يكن إلا بيت واحد، فأسكنها في بعض جوانبه.))[١٢] والظاهر من قول قتادة أن السكن يكون في

بيت المطلِق (في بعض جوانبه) عند عدم المقدرة (الوجد) أما إذا كان قادرًا فله أكثر من بيت فالمطلقة تسكن في بيت ثاني غير بيت الزوجية .

والإشكالية الثانية التي لاحظها الزمخشري مترتبة على تفسيره هي كيف يكون المراد إسكان المطلقة الرجعية في سكن الزوجية القائم بالفعل ، والآية تقول " مِّن وُجْدِكُمْ" أي من سعتكم وما ستجودون به أي تقدموه ؟ أي أن " مِّن وُجْدِكُمْ" دلت على تقديم سكن آخر من مال المطلق ، وأجاب الزمخشري عن ذلك أن المراد أسكنوهن في سكنكم الذي تطيقون توفيره ، وهي إجابة غير مقبولة لأنه لا يستقيم أن يكون المراد اشتراط توفير سكن مناسب للمطلقة الرجعية وهي بالفعل موجودة في السكن المعدُّ للزوجية سابقًا قبل الطلاق .

وأيًا ما كان الأمر ، فإن الزمخشري بتسائله وإجابته قد ألمح إلى وجود إشكالية في تفسيره للآية بجعلها أمرًا لسكن المطلقة الرجعية في سكن المطلِق ، أو في بعض سكن المطلق على حد تعبيره ، تبعه في ذلك عدد من المفسرين[١٣] ، والسبب في وجود هذه الإشكالية (التعارض) أن أول السورة أمرت بإبقاء المطلقة في سكن الزوجية فترة العدة ، وجاء في الآية في وسط السورة " أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم" وهو ما يفيد إسكان المطلقة في بيت من جنس سكن الزوجية ، فهو انتقال لمكان آخر .

وتزول هذه الإشكالية إذا احتكمنا إلى صياغة الآية ، فالآية أمر بإسكان المطلقة ، لكن أي نوعٍ من الطلاق تقصده الآية ؟ فالمطلقة التي لها حق السكن على طليقها هي :

١- المطلقة طلاقًا رجعيًا (التي يمكن للزوج مراجعتها لأنه طلقها طلقة أولى أو ثانية ومازالت في العدة) وسكنها بيت الزوجية ، فلا تخرج منه ؛ لعل ذلك يكون سببًا في بقاء الحياة الزوجية ، وهذا ما حدّدته الآيات في أول السورة.

٢-المطلقة طلاقًا بائنًا بينونة صغرى (بعد الطلقة الأولى أو الثانية وانتهت عدتها) إذا كانت حاضنة ؛ لأن السكن ضرورة لأولاد المطلق الواجب عليه النفقة .

٣- المطلقة طلاقًا بائنًا بينونة كبرى ومازالت في العدة ، وليست من أولات الحمل ولا هي حاضنة ، وهناك خلاف في وجوب توفير السكن لها ، فمن رأى وجوب السكن نظر إلى أن الانتظار فترة العدة من حق الزوج فعليه السكن، ومن لم يوجب لها السكن فلانقطاع علاقتها بمطلقها فلا رجعة ولا حمل ولا أولاد .

٤- المطلقة طلاقًا بائنًا بينونة كبرى ومازالت في العدة لأنها حامل ، أو انتهت عدتها وهي حاضنة ، على المطلق توفير السكن لأنه ضرورة لأولاده .

ومن ذلك ندرك أن هناك أنواعًا للطلاق تستوجب السكن للمطلقة ، فأي هذه الأنواع تقصد الآية الكريمة ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ)) ؟ فبالنسبة للمطلقة طلاقًا رجعيًا يمكن للزوج مراجعة مطلقته فيه دون عقد جديد ، وقد صرحت أول السورة ببقاء المطلقة في منزل الزوجية ((لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ)) (الطلاق :١) ومعنى ذلك تواجدها في المنزل ، وبهذا يمكن توجيه الآية التي معنا ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ)) إلى الأنواع الأخرى من الطلاق ، وهي من الطلاق البائن الذي لا يمكن فيه رجوع الزوج لمطلقته من تلقاء نفسه ، فتحْرُمُ المطلقة على طليقها وتكون أجنبية عنه ، لذا لزم توفير منزل آخر غير المنزل الذي يقيم فيه المطلق ، فيجب عليه توفير سكن لها (لأنها مازلت في عدته أو حاملًا أو حاضنة) ويجب أن يكون سكنًا آخر غير سكنه ، فلابد أن تنتقل إلى سكن آخر .

ومما يدل أيضًا على أن الآية ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ)) للمطلقة غير الرجعية أن الآية نفسها قالت : ((وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)) (الطلاق :٦) وهنا ظهر خلاف المفسرين جليًا ، وهو خلاف كما ذكرتُ مبنيٌ على عدم تحديد معنى (من حيث) ، إذ كيف يكون المراد في هذه الآية السكن للمطلقة الرجعية ويأمر الله تعالى بالإنفاق على الرجعية الحامل ، وهي أصلًا في بيت الزوجية لم تخرج منه ولها نفقة حاملًا أو غير حامل ؟ فالزمخشري مازال محتفظًا برأيه في أن الآية للمطلقة الرجعية والمراد بالسكن سكن الزوجية ، فيقول : (("وَلا تُضاَرُّوهُنَّ" ولا تستعملوا معهن الضرار لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ في المسكن ببعض الأسباب: من إنزال من لا يوافقهن، أو يشغل مكانهن، أو غير، ذلك، حتى تضطروهن إلى الخروج. وقيل: هو أن يراجعها إذا بقي من عدتها يومان ليضيق عليها أمرها. وقيل: هو أن يلجئها إلى أن تفتدى منه. فإن قلت: فإذا كانت كل مطلقة عندكم تجب لها النفقة ، فما فائدة الشرط في قوله (وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) قلت: فائدته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظانّ أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل، فنفى ذلك الوهم))[١٤] فالآية عند الزمخشري تأمر بالإنفاق على الرجعية الحامل التي لم تخرج من بيت الزوجية دفعًا للتوهم في عدم وجوب ذلك إن طالت مدة الحمل ، أما الرازي فإنه تصريحًا يأخذ الجانب الآخر المقابل لرأي الزمخشري ، وعلى الرغم من أن الرازي ذكر تفسير الزمخشري لأول الآية "أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم " منسوبًا لقائله (صاحب الكشاف) ، إلا أن الرازي قابل رأي الزمخشري في تفسير "وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ" دون أن يذكر

رأي الزمخشري لهذا الجزء من الآية ، وكأن الرازي بعدم ذكره رأي الزمخشري يرفض هذا الرأي ، يقول الرازي : ((وقوله: "وَلا تُضارُّوهُنَّ" نَهيٌ عَن مُضارَّتِهِنَّ بِالتَّضيِيقِ علَيهِنَّ فِي السُّكنَى وَالنَّفَقَةِ ، "وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ" وهذا بيانُ حُكمِ الْمطلَّقَةِ الْبَائِنَةِ، لِأَنَّ الرَّجعيَّةَ تستحِقُّ النَّفَقَةَ، وَإِنْ لَم تَكنْ حاملًا))[١٥] وبينما أفرد كل من الزمخشري والرازي رأيًا مخلافًا للآخر ، ذكرهما ابن كثير المتأخر عنهما موضحًا التوجه الأكثر للمفسرين ، فيقول ابن كثير: ((وَقَوْلُهُ تعالى: (وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ منهمُ ابن عَبَّاسٍ وَطَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ وجماعاتٌ مِن الْخَلَفِ: هذهِ فِي الْبائنِ إِنْ كَانَتْ حَاملًا أَنْفَقَ عَلَيهَا حَتَّى تَضَعَ حَملَهَا، قَالُوا بِدليل أَنَّ الرَّجعِيَّةَ تَجِبُ نَفَقَتُهَا سَوَاءٌ كَانَتْ حامِلًا أَوْ حائِلًا ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ السِّيَاقُ كُلُّهُ في الرجعيات وإنما نص على وجوب الْإِنفَاقِ عَلَى الحامِلِ، وَإِن كانَت رَجعِيَّةً، لِأَنَّ الْحَملَ تَطُولُ مُدَّته غالِبًا فَاحْتِيجَ إِلَى النَّصِّ عَلَى وُجوبِ الْإِنفَاقِ إِلَى الْوَضْعِ، لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَجِبُ النَّفَقَةُ بِمِقدَارِ مُدَّةِ الْعِدَّةِ))[١٦] ولعل هذا الخلاف يوضح أن فهم الآية من أولها على أن معناها إسكان المطلقة في سكن الزوجية، وليس في سكن آخر تنتقل إليه ؛ أحدث إشكالية احتاجت إلى المعالجة والتبرير ، بينما يظهر تفسير الآية متسقًا إذا فهمت من أولها على أنها أمر بإسكان المطلقة غير الرجعية في سكن آخر تنتقل إليه .

وعليه جاء تركيب (من حيث) في الآية الكريمة للدلالة على انتقال المطلقة إلى سكن آخر وعدم بقائها في سكن المطلق ، على غير حالة المطلقة طلاقًا رجعيًا ، وبذلك يكون الهدف من صياغة الآية تحديد نوع السكن ، ويرتبط به نوع المطلقة ، فنوع السكن كما تدل عليه صياغة الآية : سكن آخر من نوعية سكن المطلق وفقًا لمقدرته المالية ، فكونه سكن آخر حدّد نوع المطلقة ، وهي المطلقة البائن التي لها حق السكن ، وكونه من نوعية سكن المطلق حتى لا يكون هناك إضرار بالمطلقة بتوفير سكن لا يناسبها ، وهذه الفائدة الدلالية (وجوب سكن آخر من نوعية سكن المطلق) مأخوذة من تركيب (من حيث) لأنه يفيد الانتقال من مكان لآخر ، فلو أن الآية كانت (أسكنوهنّ حيث سكنتم من وجدتكم) لأفادت سكن المطلقة في المكان الذي يسكن فيه المطلق ، وهو لا يكون إلا للمطلقة الرجعية التي تحدثتْ عنها السورة في أولها ، وأفاد التركيب (من حيث) أيضًا أن هذا السكن المستقل من جنس (نوعية / مستوى) سكن المطلق ، وكأنه شيء أخذ من شيء آخر وانفصل عنه ، كذلك سكن المطلقة طلاقًا غير رجعي يكون من جنس سكن الزوج ومنفصل عنه لانفصال الحياة الزوجية .

الصورة الثانية : (حيث) موضع (من حيث) :

تفيد (حيث) الظرفية المكانية المستقرة ؛ فتقع ظرفَ مكانٍ ، فيقبل المعنى دخول حرف الجر (في) عليها ، وتفيد استقرار الحدث (الفعل) في المكان ، لا انتقاله ، وقد جاءت اثنتى عشرة مرة في القرآن الكريم ، وجاء استعمالها استعمالًا أصليًا في عشرة مواضع ، بأن استعملت (حيث) في موضع الظرفية المكانية المستقرة.

ففي قوله تعالى : ((وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)) (البقرة: ٣٥) يقع الحدث الفعلي (الأكل) في مكان محدد ولا يفيد معنى الانتقال من مكان إلى آخر ، ومثله ((فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ)) (البقرة:٥٨) ومثله ((وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ)) (الأعراف: ١٦١) وفي قوله تعالى : ((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)) (البقرة : ١٩١) يقع القتل في المكان الذي يتمكن فيه المقاتل من عدوه ، ومثله ((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ)) (النساء : ٨٩) و ((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)) (النساء: ٩١) و مثله ((فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)) (التوبة:٥)

وجاءت (حيث) مع الفعل (يتبوأ / نتبوأ) وهو بمعنى السكن، وذلك في قوله تعالى : ((وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)) (يوسف: ٥٦) وقوله تعالى : ((نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء)) (الزمر: ٧٤) ولم تأتِ الآيتان بصيغة (من حيث) مثل: ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم)) (الطلاق: ٦) إذ كان من الممكن أن تكون الآية (يتبوأ منها من حيث يشاء / نتبوّا من الجنة من حيث نشاء) وذلك لحاجة السياق للاستعمال الأصلي لـ (حيث) لأنه معنى مقصود إظهاره، فيوسف عليه السلام يستقر وزيرًا في مصر ، بل ويجلب أباه يعقوب (إسرائيل) عليه السلام وأهله إليها ، ليكونوا من أهل مصر مستقرين فيها لسنين ، وهم بنو إسرائيل الذي اتخذوا من مصر موطنًا ، واستعبدهم فيها فرعون فيما بعد ، فالآية ((وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)) (يوسف: ٥٦) تقبل بوضوح دخول حرف الجر (من) على (حيث) لتفيد تنقله من المكان الذي استقر فيه ، لكن هذه الدلالة غير مرادة ، وإنما المراد دلالة استقراره وأهله في مصر ، وكذلك جاءت دلالة الاستقرار لأهل الجنة في سياق سورة الزمر ، الذي يوضح كيف استقر الأمر لأهل الجنة بعد استقبال الملائكة لهم ، ((وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)) (الزمر: ٧٣) فهناك ترحابٌ لاستقرارٍ وخلودٍ ، وتُضفي نهاية السورة هذا المعنى أيضًا ((وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) (الزمر:٧٥) فدلالة الاستقرار مقصودة في السياق.

وجاءت (حيث) مع الاستعمال الأصلي في قوله تعالى: ((وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)) (طه:٦٩) وكان من الممكن من باب المبالغة أو تأكيد المعنى في غير هذا السياق أن تكون الآية: (لا يفلح الساحر من حيث أتى) تأكيدًا على بطلان سحرهم قبل وصولهم ، لكن السياق يُظهر أن الغرض من إبطال السحر أن يكون هذا الإبطال في مكان محدد جمع فيه فرعون الناس ، ليشهدوا ما يحدث، وتكون المعجزةُ في هذا المكان ، فلم يفلح سحرهم في هذا المكان وسقط فيه، كما أن السحرة لم يبرحوا المكان بوصفهم سحرة ، إذ آمنوا وصلبوا .

ففي هذه المواضع العشرة السابقة جاء استعمال (حيث) استعمالًا أصليًا، وفي موضعين آخرين نجد استعمال (حيث) بدون حرف الجر مع أن الفعل الذي يسبقها يتعدى بحرف الجر (إلى) أو (من) مما يعدُّ انحرافًا عن الأصل ، فجاءت (حيث) موضع (من حيث) التي وردت في القرآن الكريم ، وهذان الموضعان هما :

- ✓ قوله تعالى : ((فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)) (ص : ٣٦)

وهذه الآية تجمع بين وصفين للريح يؤثران على معنى "حيث" هما : الأول : وصف "تجري بأمره" الذي تناسبه بُنية " من حيث" ، والثاني: وصف "رُخاء" وهو يوضّح أثر الريح في مكان محدد ، ويناسبه بُنية "حيث" بدون حرف الجر.

فإذا كانت "حيث" هي الوعاء الذي ينصب فيه الفعل "تجري الريح" فإن هذا الحدث/ الفعل مقيد بالوصف "رخاء" المُبيِّن لنوع الحدث أو غرضه ، ولذا فإن فهم "حيث" مرتبط بفهم "رخاء" ، والعجيب أن "حيث" أظهرت لي وجود فهمين لهذا الوصف "رُخاء" أحدهما أجمع عليه المفسرون ممن قرأت لهم ، والثاني أقدمه بقرائنه .

الفهم الأول لمعنى "رُخاء" :

فقد ذهب المفسرون (كالزمخشري والرازي وابن كثير وأبي السعود والألوسي)[١٧] إلى أن "رُخاء" نوع من الريح ، وهي الريح اللينة في مقابل الريح العاصفة التي وردت في قوله تعالى: ((وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)) (الأنبياء:٨١) وذكر الألوسي أن لكل نوع من الريح غرضه ، فيقول عن الريح: ((كانت في أصل الخلقة شديدة لكنها صارت لسليمان لينة سهلة ، أو أنها تشتد عند الحمل وتلين عند السير ، فوصفت

باعتبار حالين، أو أنها شديدة في نفسها فإذا أراد سليمان عليه السلام لينها لانت على ما يشير إليه قوله تعالى: {بِأَمْرِهِ} أو أنها تلين وتعصف باقتضاء الحال))[18] وفي موضع آخر يقول عن الريح : ((وقيل وصفها بالرخاء في الذهاب ووصفها بالعصف بالإياب على عادة البشر في الإسراع إلى الوطن))[19] ويبدو أن هذا التفسير الأخير بناءً على قوله تعالى : ((وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)) (سبأ: ١٢) وهو الموضع الثالث الذي ذكرت فيه ريح سليمان عليه السلام.

وما ذهب إليه المفسرون من أن (رُخاء) بضم الراء نوع من الريح هي الريح اللينة ، متأثرين بالمواضع الثلاثة لريح سليمان ، تذكره معاجم اللغة عن "رُخاء" بضم الراء ، فيفرق أصحابها بين "رُخاء" ورَخاء" ، فيقول الفيروز أبادي مثلًا : ((والرُّخاءُ، بالضمِّ: الرِّيحُ اللَّيِّنَةُ، وبالفتحِ: سَعَةُ العَيْشِ))[20]ومثله الراغب الأصفهاني وغيره[21]، لكن تفسير الرُخاء بالريح اللينة في مقابل الريح العاصفة يُلاحظ عليه تضيق المعنى الواسع ، فما ذكرته المعاجم في شرحها مادة (رخاء) يدل على معنى أعم من الريح اللينة ، وأول ما يلاحظ فيها أن المصدر (رخو) مثلث الراء يقول ابن منظور : ((قال ابن سيده: الرِّخْوُ والرَّخْوُ والرُّخْو: الهَشُّ من كلّ شيءٍ؛ غيره: وهو الشيء الذي فيه رَخاوة ... وفيه رُخْوة ورِخْوة أَي اسْترخاءٌ. وفرسٌ رِخْوة أَي سَهْلَةٌ مُسْتَرْسِلَة))[22] فالرخو (بفتح الراء أو ضمها أو كسرها) اللين الهش من كل شيء.

لقد جعل المفسرون كلمة "رُخاء" نوعًا للريح ، فهي وصف لها ، ويفهم ذلك أيضًا من بعض الجمل في شرح معنى الكلمة في معاجم اللغة ، ففي لسان العرب: ((وريحٌ رُخاءٌ: لَيِّنة. الليث: الرُّخاءُ من الرِّياح اللّيِّنة السريعة لا تُزَعْزِعُ شيئاً. الجوهري: والرُّخاءُ، بالضم، الريحُ اللّيِّنَة. وفي التنزيل العزيز: تَجري بأَمرِه رُخاءً حيثُ أَصابَ؛ أَي حيث قَصَد... وقال أَبو منصور: وإرْخاءُ الفرسِ مأْخُوذٌ من الريح الرُّخاء، وهي السَّريعة في لِينٍ))[23] فيلاحظ في هذه الجمل أن الريح موصوفة بالرخاء ، فهما شيء واحد ، وليس الرخاء حادثٌ من الريح ، وهذا الفهم نجد أثره على إعراب الكلمة في الآية الكريمة فتوجّهت كتب الإعراب إلى رأي واحد وهو أن " رُخاء" حال صاحبها الريح ، إلا ما ذهب إليه الأخفش في قوله : ((فانتصاب "رخاء" - والله أعلم - على رخيّناها رخاءً))[24] ، وعلى الرغم من أن المقارنة بين الآيتين " وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ " (الأنبياء:٨١) " الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً " (ص: ٣٦) تظهر أن "عاصفة" حال من الفعل "سخرنا" المقدر ؛ فهو مناسب لعظمة التسخير، و"رخاء" حال من تجري الريح بأمره ؛ فهو مناسب لطواعيتها لسليمان ، ليكون المعنى "تسخير الريح لسليمان عاصفة وتجري بأمره رُخاء" إلا أن الآية في سورة (ص) لم تأتِ بكلمة "رُخاء" وصفًا مطابقًا

للريح كما يُفهم من بعض الجمل في شرح المعاجم لكلمة "رُخاء" بل أننا لا نجدها بصيغة "رخوة" المطابقة لتأنيث "الريح" مثل عاصفة ، وبذلك من الممكن التحرر من فكرة أن "رخاء" نوع أو وصف أو حتى حال للريح ، إذا ما تركنا معنى اللفظ "رُخاء" مطلقًا في اللين والسعة ولم نقيده بالريح .

الفهم الثاني لمعنى "رُخاء" :

إذا ما نظرنا إلى الآية "الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً" على أنها تصف الغرض من الريح ، وعدنا إلى ما ذكرته معاجم اللغة عن معنى "رخو" الدال على اللين والسعة ، وانتبهنا إلى إمكانية نطق الراء مضمومًا في المصدر "رُخو" أتاح لنا ذلك تصوّرًا آخرًا للكلمة ، بأن تكون "رُخاء" بضم الراء نطقًا / لغةً لكلمة "رَخاء" بفتح الراء ، كما يذكر ذلك الفيومي عن (رُخو) فيقول : ((الرِّخْوُ بِالْكَسر: اللَّيِّنُ السَّهْلُ ، يُقال : حَجَرٌ رِخْوٌ ، وقال الْكِلَابِيُّونَ : رُخْوٌ بِالضَّمِّ وَالْفَتحُ لُغَةٌ))[٢٥] خاصة وأن ما ذكره الأخفش من تقدير (رخيّناها رُخاءً) يقوي احتمال أن "رُخاء" مصدر مثله مثل (دَعَى : دُعاء) وعندها يكون معنى الآية الريح تجري بأمره فتُحدِث "رُخاء" في المكان الذي أراده سليمان أو نزل فيه ، وعليه يكون إعراب "رُخاءً" مفعولًا لأجله ، فالريح وإن كانت تجري متنقلة من مكان إلى مكان ، إلا أنها تقع رخاءً في مكان محدد ، إما بنزول الماء ، أو نتاج الثمر بعد اللقاح ، وبذلك فالحدث الفعلي (يقع الماءُ رخاءً) محدد في المكان .

وأيًا ما كان فهم كلمة "رُخاء" فإن معناها وثيق ببُنية "حيث" بدون حرف الجر "من" ؛ لأن ما ذكره المفسرون عن الريح اللينة "الرُخاء" يفيد ارتباطها بالمكان المحدد ضمنًا لا تصريحًا ، فهي ريح لينة يطيب للإنسان البقاء معها (على غير الريح العاصفة المعدّة للترحال وللعدو) فالرُخاء - إن كانت نوعًا من الريح وحالًا لها ، كما ذهب المفسرون - تدل على الغرض منها وهو نزول الماء الذي يجعل الأرض رخوة وتكون لواقحَ فتخرج الثمار لينة ، وهو معنى يناسب بُنية "حيث" بدون حرف الجر لدلالة هذه البُنية على الظرفية المحدَّدة في المكان ، لكن الفهم الثاني لكلمة "رُخاء" بأن تكون أثر الريح وما تحدثه من لين في المكان أشد ملاءمة وأكثر مناسبة لبُنية "حيث" بدون حرف الجر ؛ لأن التصريح - على الفهم الثاني - بأثر الريح (اللين والسعة) يحتاج إلى المكان الذي يحدث فيه .

فنحن أمام فهمين لكلمة "رُخاء" الثاني أكثر مناسبة لـ (حيث) من الأول ، وهما :

- الريح اللينة تجري في المكان (ترتبط بالمكان عن طريق الدلالة الضمنية، بدلالة الشيء على غرضه ووظيفته)
- الريح تجري فتُحدث لينًا في المكان (ترتبط بالمكان عن طريق الدلالة التصريحية؛ لأن اللين من ماء وزرع صورة من صور المكان)

ومن الملاحظ أن ترتيب مكونات الفهم الثاني (الريح + تجري+ تُحدِث لينًا) يوافق ترتيب الآية "الريح + تجري بأمره + رخاء" في تأخر "رُخاء" عن "تجري" ، كما يقوي معنى وقوع أثر الرخاء في مكان محدد ما نقله الألوسي عن معنى "أصاب" قائلًا: ((وعن قتادة أن "أصاب" بمعنى : أراد ، لغة هجر وقيل لغة حمير، وجوّز أن يكون "أصاب" من صاب يصوب بمعنى نزل، والهمزة للتعدية أي حيث أنزل جنوده))[٢٦] ولايتعارض وقوع أثر الريح رخاءً في مكان محدد مع تفسير الزمخشري وغيره لكلمة "أصاب" بقوله : ((حيث قصد وأراد))[٢٧] فيقع أثر الريح في المكان الذي أراد سليمان عليه السلام أن تقع فيه أثر الريح ، وإن كان تفسير "أصاب" بمعنى "قصد وأراد" قد يوهم بمعنى جري الريح من حيث توجه سليمان وسار ، لأن القصد التوجه ، لكن المفسرين لم يذكروا ذلك ، وهو توهم ينافيه معنى "أراد" بل إننا إذا قرأنا معنى "أصاب" في المعاجم اللغوية نلحظ قصورًا في تفسير كلمة "أصاب" بـ "قصد وأراد" أو حتى "نزل" لأن المعاجم تشرح معنى "أصاب" بما يفيد النزول في المكان والوقوع في وسطه ، وبما يشير إلى نزول الماء ، فمثلًا يقول الزبيدي في تاج العروس: ((يقَالُ : صَابَ المَطَرُ صَوْباً... الصَّوْبُ : المَجيءُ من مكان علٍ وقَد صابَ، وكُلُّ نَازِلٍ من عُلُوٍّ إِلَى استِفَال [نازل إلى منخفض] فهو صَابَ يَصُوبُ ... وقال اللَّيْثُ : الصَّوْبُ : المَطَرُ، وصَابَ الغَيْثُ بمكان كَذَا وكَذَا. وصَابَتِ السَماءُ الأَرْضَ : جَادَتْهَا. وصابَ أَي نَزَل... وفي الأَساسِ ومن المَجَاز: أَصَابَ الشيءَ: وَجَدَه. وأَصَابَه أَيْضاً : أَرادَه . قلْتُ : وبِه فَسَّرَ أَبُو بَكْر قَوْلَه تَعَالى : "تَجْري بأَمْرِه رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ" قال : أَرَادَ : حَيْثُ أَرَادَ))[٢٨] وأن تكون كلمة "أصاب" بمعنى "نزل" وترتبط بالهبوط في المكان ونزول الماء يقوي دلالة الغرض من الريح اللينة أو معنى جريان الريح لتحدث لينًا وسعة في المكان ، وهو المعنى المناسب لبنية "حيث" بدون حرف الجر "من" أمَّا التوجه من مكان إلى مكان - وهو إحدى معاني القصد ، مثل "وعلى الله قصد السبيل" (النحل:٩) - فإن المناسب لها بُنية " من حيث" ، وهكذا كاد أن يوهم التفسير بمعنى آخر يخالف معنى "أصاب" يرفض وجوده قرينة لفظية وهي بنية "حيث" بدون حرف الجر.

وليست الفائدة البلاغية مقصورة في البحث عن مناسبة أكثر لبنية "حيث" سواء مع "رُخاء" أو "أصاب" ؛ فلقد كانت هذه البنية بدلالتها على المكان المحدد سببًا في بيان فهم آخر للآية ، وتوضيح تفسيرها ، وكذلك نجد هذه البنية موضحة للفرق بين مواضع مشتركة في النص القرآني ، فالقرآن الكريم تحدث عن ريح سليمان عليه السلام في ثلاثة مواضع هي :

أ/ ((وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ)) (الأنبياء:٨٠-٨١)

ب/ ((فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)) (ص :٣٦)

ج/ ((وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)) (سبأ: ١٢)

فالآية الأولى صريحة الدلالة على أن الغرض من جري الريح الانتقال إلى الأرض التي بارك الله حولها ، والآية التي قبلها تشير إلى القتال ((وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ)) (الأنبياء:٨١) والقتال يرتبط بالانتقال في كثير منه ، ومع دلالة انتقال الريح عاصفة نجد خلو الآية من بُنية (حيث) وارتباط الفعل "تجري" بمتعلقه حرف الجر "إلى" ، وكذلك يأتي الموضع الثالث في سورة سبأ بدلالة الانتقال بما يمثل سَفرًا أو رحلة تجارية ذهابًا وإيابًا ويأتي بعدها الحديث عن أسفار مملكة سبأ وتجارتهم ، يقول تعالى : ((وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)) (سبأ: ١٨-١٩) أما آية سورة (ص) فهي تتحدث عن غرض آخر للريح وهو نماء المكان وتعميره ، وجاءت في سياق يتحدث عن مُلك سليمان وكرسيه ، وبناء الدولة ، يقول تعالى: ((وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)) (ص:٣٧) وهو ما يشير إلى المملكة المتحضرة المستقرة ، ومع هذا السياق جاءت بُنية "حيث" بدون حرف الجر ؛ لتؤكد دلالة النماء والاستقرار في هذا الموضع في مقابل دلالة الانتقال بسرعة وقوة كما هو في الحرب ، ودلالة الذهاب والإياب كما هو في التجارة المستمرة ، فهذه هي أغراض ريح سليمان الثلاثة (ريح عاصفة قوية وسريعة تنقل إلى مكان آخر، ريح تغدو وتروح، ريح لينة تُحدث رخاءً في المكان) فجاءت بُنية "حيث" مع غرض واحد من أغراض الريح دون غيره لدلالتها على الظرفية في المكان المحدد ، ولم تأتِ بُنية "من حيث" بديلة عنها لمنافاة "من حيث" غرض البقاء في المكان ، والقرآن الكريم يستثمر بُنية "حيث" التي تؤدي وظيفة المكان المحدد في دلالة أعم من وظيفتها وتناسبها ، وهي دلالة استقرار مُلك سليمان عليه السلام وسعة العيش والرخاء فيها ، وهكذا نجد أن فهم دلالة بُنية "حيث" بدون حرف الجر يُمكِّن من قراءة مختلفة

لمعنى الآية ، وإن كان الاختلاف يسيرًا ، وتتيح مراجعة للقراءة السابقة، وفي ضوء ذلك يظهر الدور البياني لصياغة هذه البنية عدولًا عن غيرها.

- ✓ قوله تعالى ((فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)) (الحجر : ٦٥)

تُظهر هذه الآية ملمحًا أسلوبيًا ، وهو أن القرآن الكريم لا يُدخل أي حرف جر على "حيث" سوى "مِن" فمع أن المنطق اللغوي يسمح بذلك ، فتأتي "حيث" بعد أي حرف جرٍ مناسبٍ قياسًا على "مِن" وهو ما تؤيده الشواهد النحوية ، فكما تقول: خرجتُ من حيث أريد ، تقول: خرجتُ إلى حيث أريد ، لكن القرآن الكريم لم يأتِ بتركيب "إلى حيث" وهو أسلوب ملاحظٌ في قوله تعالى : ((وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)) (الحجر:٦٥) ، فالآية الكريمة بهذا التركيب تحتمل عدّة أوجه في المعنى ، وقد رصد علماء اللغة والتفسير هذه الأوجه وظهر الاختلاف في الرأي ؛ مما يدل على وجود درجة من التجوّز "الانحراف" في التركيب، وقد جمع الألوسي هذه الأوجه ، وأبرزها : تفسير التركيب على معنى : امضوا إلى حيث تؤمرون ، أو تفسير التركيب على تضمين الفعل "امضوا" معنى فعل آخر يفيد الحلول والتوطّن فيكون المعنى: اسكنوا حيث تؤمرون ، وذهب د. محمد نديم فاضل إلى رفض الرأيين السابقين قائلًا : ((ذكرت المعاجم أن (مضى) قاصر لا يتعدى وعليه اضطر الألوسي إلى تضمينه معنى (الحلول والتوطن) ليصبح متعديا ويصير صالحا لتعليق (حيث) به... كما قدره البيضاوي : وامضوا إلى حيث أمركم اللّه بالمضي إليه ، مصر أو الشام ... أقول: لعل توافر شواهد موثوقة تجعلك تتحفظ من أقوال بعض المعربين والمفسرين، ففي قول الكلحبة العرني[29] :

إذَا تَمْضِيهِمُ عادَتْ عليهم وقَيَّدَهَا الرّماحُ فمَا تَرِيمُ

الفعل (تمضي) متعدٍ بنفسه وهو مما أهملته المعاجم كما قال شاكر وهارون ومعناه: تُنفذهم هذه الفرس في القتال وتعود عليهم لتقتل بقيتهم فإذا أثقلْتها الجراح فلا تبرح ولا تريم[30]، فمضى في الآية معناه: أنْفُذوا موضع نجاتكم كما أمر اللّه - مصر أو الشام - فهو ليس بقاصر، وعليه تكون (حيث) مفعولا به ولا تضمين في الفعل))[31] وفضلًا عن احتمال أن يكون تعدي الفعل في البيت المذكور للضرورة الشعرية ، فإن رأي د. محمد نديم لا يعدو أن يكون تضمينًا أيضًا للفعل "امضوا" الذي هو بمعنى "اذهبوا" فيضمنه معنى "انفذوا" لكنه يرى أن "انفذوا" من معاني الفعل ، وأزعمُ أن معنى "انفذوا" لا يناسب الآية ولا يتفق مع معنى الفعل "مضى" في القرآن

الكريم ، يقول تعالى: ((أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)) (الكهف:٦٠) ((فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)) (يس:٦٧) وفي النهاية هو تضمين لمعنى آخر للفعل يقبل التعدي إلى "حيث" .

لقد عرضتُ هذا الاختلاف في الرأي لأبيّن أنه اختلاف يشتغل بعملية توصيف ـ وإن شئتَ تقنين ـ هذا التركيب "امضوا حيث" ولكن يمكننا أن نستنتج من هذا الاختلاف وجود درجة من التجوّز في صياغة التركيب أدّت إلى البحث عن المعنى الحقيقي له ، والذي يشغل البحث هنا الداعي البلاغي لهذا التجوّز ، لأننا الآن أمام آية آثرت صيغة "امضوا حيث" على صيغة "إلى حيث" أو "من حيث" لتفيد صيغة "امضوا حيث" أحد معنيين : إما امضوا في المكان الذي تؤمرون ، أو ادخلوا / اسكنوا المكان الذي تؤمرون ، وكل منهما قريب من الآخر ، لأن التركيب أراد وقوع الفعل داخل المكان إما بظرفية "حيث" التي تفيد معنى "في" لأنه لم يسبقها حرف جر ، أو بتضمين الفعل معنى فعل متعدي ، المهم أننا أمام معنى : الذهاب / المضي في المكان ، وليس إليه أو منه ، والسؤال هنا : لماذا جاء هذا المعنى أو ما علاقته بالسياق ؟ إن السياق يتحدث عن دمار حل بأرض قوم لوط ، أي بالمكان كله ، يقول تعالى : ((فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)) (الحجر:٧٤) فالخراب والدمار من كل جهة ، فلا مكان يصلح أن يذهب إليه أو منه الناجون ، إلا أن يدخلوا في مكان محاط بعناية الله تعالى من كل جانب ، فالآية بهذا التركيب "امضوا حيث" أفادت الدخول مباشرة بدون حرف جر في المكان المحاط بعناية الله تعالى ، فهم في مكان آمن ، وليس إلى ، فالفعل "امضوا" وإن كان يغلب عليه معنى المضي إلى المكان ـ كما فسره معظم المفسرين ـ أو من المكان ، إلا أن الآية ببُنية "حيث" أرادت معنى النجاة والعناية ، السكن والبقاء ، لا الانتقال الذي يناسبه بُنية "من حيث" أو "إلى حيث" لأن المضي هنا مستقر في المكان الآمن المحاط بعناية الله تعالى ، معدٌّ لحياة جديدة مستقرة كالتي أعدها الله تعالى لنوح عليه السلام والناجين معه بعد دمار المكان .

الصورة الثالثة : تغيير موقع (حيث) في مضمون تغيير مكان القبلة :

تقدَّمت (حيث) على جملتي الربط أربع مرات في القرآن الكريم وذلك في موضع واحد ، وهي :

((وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)) (البقرة : ١٤٤)

((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) (البقرة : ١٤٩)

((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) (البقرة : ١٥٠)

((وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)) (البقرة : ١٥٠)

وعند دراسة هذه البنية نجد أن القرآن الكريم أجرى من خلالها أنماطًا بلاغية كالمماثلة والمجاز والحذف بطريقة خفية لا ينتبه القارئ إليها إلا من خلال التحليل ، خاصة تحليل البناء التركيبي لـ"حيث" في الآيات ؛ وكأن هذا التخفي لهذه الأنماط خلفيات جمالية لا تباغت القارئ بطريقة صياغتها ، لتظل محتفظة بجمالها من وراء حجاب ، هذه الأنماط البلاغية تشكلت فيما يلي :

أ- تحويل موقعية (حيث) مماثِلةٌ للتحويل الواقعي للقبلة :

يعقد القرآن الكريم مماثَلة شكلية غريبة من نوعها ، بتحويل موقعية (حيث) لتكون مماثِلة للتحويل الواقعي للقبلة ، ففي أربع مرات اختلف البناء التركيبي لـ (حيث) في الجملة ، فبدلًا من أن تتوسط (حيث) جملتين تربط بينهما ، كما عهدناها في كل مواضعها ، تتقدّم (حيث) على جملتي الربط ، بأن تقدّمت هي والجملة التي بعدها على الجملة الأولى ، وهذا الاختلاف التركيبي تبعه اختلاف في الوظيفة الدلالية لـ (حيث) ؛ لأن اختلاف البناء يتبعه اختلاف المعنى حتمًا ، وقبل الحديث عن التغيير الدلالي من تقدّم (حيث) على جملتي الربط ، لابد من ملاحظة أن هذه البنية التي وردت أربع مرات جاءت في سياق واحد ، وهو ما يثير تساؤلًا عن علاقة الاختلاف التركيبي الوحيد لاستعمال (حيث) في القرآن الكريم ومضمون السياق الوحيد الذي احتوى هذه المرات الأربع ، فالقرآن الكريم في هذا السياق فقط يغير من أسلوب توسط (حيث) بين جملتين، لتتقدم (حيث) ثم الجملة الثانية ثم الجملة الأولى ، فمعنى "ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام": ولِّ وجهك شطر المسجد الحرام من حيث خرجت ، وهنا يظهر ربط عجيب و إحكام متقن من القرآن الكريم في العدول عن أسلوب لأسلوب ، فلفظ (حيث) في أصله يدل على المكان ، وهذا السياق هو السياق الوحيد الذي حدث فيه اختلاف في أسلوب البناء التركيبي لموقعية (حيث) ، وموضوع السياق هذه الآيات في سورة البقرة يدل على الاختلاف الأسلوبي للتشريع ، بل ويتعلّق هذا الاختلاف التشريعي بالمكان ، فهي مماثلة يعقدها القرآن الكريم بين الموضوع العام للسياق وشكل الأسلوب اللغوي (قبل أن يكون هناك تناسب بين المعنى التركيبي للبنية والمعنى المراد في السياق) فموضوع السياق : مخالفة المسلمين لأهل الكتاب في القبلة بتحويل التوجه في الصلاة إلى الكعبة بدلًا من بيت المقدس ، وهو ما صرّح به السياق ((وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ)) (البقرة : ١٤٥) فالسياق يوضح أن اختلاف التوجه للقبلة ليس المراد منه تقديس مكان عن مكان ، بل هدفه أن يكون للمسلمين قبلة يأتمّون بها غير وجهة أهل الكتاب ، أما شكل الأسلوب اللغوي فهو مخالفة البناء التركيبي لموقعية (حيث) بتحويل موقع

(حيث) لأول وآخر مرة في القرآن الكريم من التوسط بين جملتين إلى التقدّم عليهما ، ليكون موقع (حيث) في هذا السياق قبلةً (إمامًا) لما بعدها.

وأيًا ماكان الاستدلال عن محاكاة أسلوبٍ - يتكوَّن من لفظ يدل على الجهة وجملتين- لواقع - يتكوَّن من جهة (القبلة) وطائفتين (المسلمين وأهل الكتاب) - ومحاكاة تقدّم اللفظ الدال على المكان لتقدّم القبلة ، فإننا أمام حقيقة ثابتة وهي : اختلاف البناء التركيبي لـ (حيث) أربع مرات بتقدّم (حيث) على جملتي الربط في موضع واحد ، موضوع هذا الموضع هو تحويل القبلة إلى الكعبة لاختلاف المسلمين عن غيرهم ، وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي تحدّث عن تحويل التوجه إلى المكان ، كما أنه الموضع الوحيد الذي تحوَّل فيه موقع (حيث) ، فالقرآن الكريم يوجد شبهًا بين الاختلاف الأسلوبي اللغوي ، والاختلاف التشريعي ، وكلاهما اختلاف في الشكل مقصود ، ويتبعه اختلاف في المضمون .

ب- التغيير الدلالي لـ (حيث) بتغير موقعها والدلالة على المجاز والحذف والتقديم :

جاءت (حيث) المتقدمة على جملتي الربط بصيغتين متجاورتين في سياق واحد ، وهما : ((وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)) ،((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) ويفرّق سيبويه بين "حيثما" و "حيث" فيجعل "حيثما" شرطية جازمة على خلاف "حيث" ، فيقول : ((وما يجازي به من الظروف : أي حينٍ، ومتى، وأين، وأنى، وحيثما ، ومن غيرهما: إن، وإذ ما ، ولا يكون الجزاء في حيث))[٣٢] والمبرد يعلّل لمنع الجزاء بـ (حيث) بقوله : ((وَلَا يكون الْجَزَاء فِي (إِذْ) وَلَا فِي (حَيْثُ) بِغَيْر (مَا) لِأَنَّهُمَا ظرفان يضافان إِلَى الْأَفْعَال وَإِذا زِدْت على كل وَاحِد مِنْهُمَا (مَا) منعتا الْإِضَافَة فعملتا))[٣٣]، ولهذا التعليل يَخلُص د. يوسف جمعة عاشور إلى رأيه : ((فالجزم بـ (أين) دون (ما) أمر وارد وأقرته اللغة ، بينما الجزم بـ (حيث) دون (ما) رفضه النحاة))[٣٤] فمن رفض شرطية (حيث) لم يلتفت إلى تغير دلالتها بسبب تقدّمها على جملتي الربط ، ونظر إلى وجود (ما) كعلامة آلية لوجود دلالة الشرط ، كما أنه لم يلتفت إلى تجاور الصيغتين في سياق واحد ومعنى واحد يصعب فيه أن تكون دلالة إحداهما شرطية والأخرى غير شرطية ، ولعلّ من أسباب عدم وصف النحاة (حيث) المتقدمة على جملتي الربط بالشرطية أن لا ينسحب ذلك على إعمالها بالجزم مثل (حيثما) ، وهو سبب غير ملزم لوجود أدوات شرط غير جازمة في اللغة ، فعدم وصف (حيث) المتقدمة على جملتي الربط بالشرطية غير مقنع مع وصف (حيثما) بالشرطية في البناء التركيبي نفسه (التقدم على

جملتي الربط) خاصة أننا نجد وصف الشرطية في (أين وأينما) ونجد وصف الشرطية وعملها بدون ذكر أداة مع فعل الشرط وجزائه في مثل : اسمعْ تفهمْ .

وأمام جمع النحاة الرافضين لوصف (حيث) المتقدمة على جملتي الربط بالشرطية يذهب الفراء إلى إدراجها ضمن الأدوات التي يجوز بها الجزاء (الشرط) وإن لم تتصل بـ (ما) ، فيقول : ((إذا رأيت حروف الاستفهام قد وصلت بـ (ما) ، مثل قوله: أينما، ومتى ما، وأي ما، وحيث ما، وكيف ما، و "أَيًّا مَا تَدْعُوا" كانت جزاءً ، ولم تكن استفهامًا ، فإذا لم توصل بـ (ما) كان الأغلب عليها الاستفهام، وجاز فيها الجزاء))[٣٥] وتنحية لهذا الخلاف النحوي الذي لا يحتكم إلى الدلالة ليبني عليه الحكم والعمل، فإن من يقرأ الآيات التي جاءت فيها " حيث " من غير "ما" متقدمة على جملتي الربط ، أي وقعت موقع أداة الشرط ، كما هو في الآية ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) يجد دلالة الشرط التي لا تتعارض مع دلالة الظرفية المكانية ، إذ يشترط المكان الذي يستوجب عليه الجزاء ، ولذا نجد الألوسي يثبت معنى الشرط في الآية وإن لم يخالف رأي النحاة في رفضهم شرطية (حيث) فيقول : (((حيث) ظرف لازم الإضافة إلى الجمل غالبًا، والعامل فيها ما هو في محل الجزاء لا الشرط ، فهي هنا متعلقة بـ (ولِّ) والفاء صلة للتنبيه على أن ما بعدها لازم لما قبلها لزوم الجزاء للشرط ؛ لأن (حيث) وإن لم تكن شرطية لكنها لدلالتها على العموم أشبهت كلمات الشرط ، ففيها رائحة الشرط ، ولا يجوز تعلقها بـ (خرجت) لفظا، وإن كانت ظرفا له معنى ، لئلا يلزم عدم الإضافة، والمعنى من أي موضع (خرجت فول وجهك) ... ويجوز أن يجعل (من حيث خرجت) بمعنى : أينما كنت وتوجهت ، فيكون (فولِّ) جزاء له على أنها شرطية ، العامل فيها الشرط - ولا يخفى ما فيه من التكلف - والتخريج على قول ضعيف لم يذهب إليه إلا الفراء، وهو شرطية حيث بدون (ما) حتى قالوا: إنه لم يُسمع في كلام العرب))[٣٦] فالألوسي يُبقي على القاعدة النحوية مع وجود دلالة الشرط في الآيةَ من (حيث) تحديدًا ، ففيها (رائحة الشرط) على حدّ قوله ، وقد أردتُ من نقل هذا الخلاف ملاحظة تحرّج المتأخرين من مخالفة قاعدة نحوية لا توافق الدلالة، مع أن الأصل في القاعدة أنها تدور مدار المعنى ، فلا يمكن استبعاد الدلالة الشرطية الناتجة من تقدّم (حيث) على جملتي الربط ، فمعنى : ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)): إذا خرجت ولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ، فالبناء التركيبي يفيد معنى الشرط .

ولسائل أن يسأل إذا كانت (حيث) المتقدمة على جملتي الربط تفيد الشرط مثل (حيثما) فلماذا زاوج بينهما في السياق؟ بالتأكيد هناك فرق في المعنى بين (حيث) و(حيثما) وقد أوضحه السياق ، فـ (ما) تفيد العموم لأنها نكرة كقوله تعالى : ((وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)) (سبأ:

٣٩) فجاءت (حيثما) مع اشتراط التوجه للقبلة في أي مكان ولعموم المسلمين سواء في الحِلّ أو الترحال ، وجاءت (حيث) مع اشتراط التوجه للقبلة في حال الخروج من مكة أو من بلد الإقامة، والخطاب خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فالسياق زاوج بين العموم والخصوص فجاء بـ (حيث) و(حيثما) للدلالة على اختلاف المعنى ، مع اتفاق البناء التركيبي بتقدّمهما على دلالة الشرطية .

وأن يفيد هذا التغيير الدلالي لاستعمال "حيث" في القرآن الكريم معنى الشرط له ملمحه البلاغي ؛ إذ يناسب معنى الشرط اشتراط التوجه إلى القبلة في الصلاة ، فلو لم يكن أسلوب الشرط موجودًا بأن كان الأسلوب : ولِّ وجهك شطر المسجد الحرام حيث خرجت ، وولوا وجوهكم شطره حيثما كنتم ، لأفاد هذا الأسلوب الأمر بالتوجه إلى الكعبة دون أن يكون ذلك شرطًا لفعل شيءٍ لا يصلح بدونه ، ولأن أسلوب الشرط في الآيات بتقدّم (حيث) دلّ على اشتراط التوجه عند وجود فعل الشرط ، أشار بذلك إلى وجود حذف في الآيات ، إذ حَذَفَ أسلوب الشرط التساؤلَ : متى يشترط التوجه شطر المسجد الحرام ؟ أو ماهو الفعل الذي يشترط في التوجه ؟ فالآيات لا تذكر أن التوجه إلى القبلة عند الصلاة ، فالأصل : إذا أردت الصلاة ولّ وجهك شطر المسجد الحرام حيث خرجت ، لكن حُذفتْ أداة الشرط وفعل الشرط الحقيقي المرتبطان بزمن محدد ، ليحِلَّ محلهما لفظ (حيث) وفعل الشرط الدالان على التواجد في المكان دون قيد الزمن ؛ ليكون في ذلك الحذف فائدة بلاغية هي تعميم التوجه للبيت الحرام حيث كان التواجد ، وكأنه توجّهٌ للكعبة في كل حال وليس في وقت الصلاة فقط ، لأن الغرض من تحويل القبلة إلى الكعبة رمزية التحول إلى دين التوحيد الإسلام عقيدة وشريعة ، وهي عقيدة إبراهيم عليه السلام الذي بنى القبلة ، وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم المختلفة عن شريعة الأديان السماوية في شكلها وفروعها ، فلكلٍّ وجهة (شِرعة) هو موليها .

إذًا هناك مجاز بالحذف طريقته البناء التركيبي لـ (حيث) الذي تتقدم فيه جملتي الربط ، فالتوجه للقبلة في الحقيقة مرتبط بالصلاة وليس بالتواجد في المكان ، لكن الآيات علّقت التوجه إلى القبلة بالتواجد في المكان ، ورشحتْ هذا المجاز بأن ذكرتْ نوعي المكان المرتبطين بـ (حيث) وهما : (خرجت) و(كنتم) فأكدت ارتباط التوجه إلى القبلة بالتواجد في المكان سواء في التنقل أو الاستقرار ، فأن يكون الكلام (إذا أردت الصلاة ولِّ وجهك شطر المسجد الحرام) يدل على التوجه في زمن أداء الصلاة ، وأن يكون : (حيث أردت الصلاة ولِّ وجهك شطر المسجد الحرام) يدلُّ على التوجه إلى القبلة في مكان أداء الصلاة أو في زمان أدائها ، لكن الآيات مع حذف فعل الشرط الدال على الصلاة جاءت بـ (حيث) الدالة على المكان ، وأكدت دلالة المكان

بالفعلين "خرجت" و "كنتم" اللذين حملا المعنى على المكان ، فطالما أنت موجود ولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ، ووجود الفعلين (خرجت) و(كنتم) يؤكد ما ذهبت إليه الدراسة هنا ، من أن القرآن الكريم يستعمل بُنية (حيث) للظرفية المكانية المستقرة ، وبنية (من حيث) للمكانية المتنقلة ، فجاء مع بنية (من حيث) الفعل "خرجت" وجاءت (حيث) بدون حرف الجر مع عموم التواجد في أي مكان (حيث ما كنتم) وفي أغلب الأوقات يكون تواجد البشر في المكان المستقر، فالاستقرار في المكان هو الأصل والأريح للإنسان ، ولذا لم يأتِ مع عموم دلالة التواجد (ما) حرف الجر (من) .

والجميل في الآيات أنها جعلت الخروج مُسندًا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن حاله كذلك ؛ فهو خارج مكة (بلده) وإن حلَّ في المدينة مهاجرًا ، وأسندت الآية عموم التواجد "حيثما كنتم" لسائر المسلمين ، فإذا كان المراد التوجه إلى الكعبة في كل مكان حِلًا أو ترحالًا ، فذلك أمر لايخص الرسول أو أحد دون الآخر ، لكن الآيات في تخصيص إسناد الفعل "خرجتَ" إلى الرسول ألمحتْ إلى شدة ارتباط الرسول ببلده مكة ، ووصفه بالخروج منها ، ولعلها ألمحت كذلك إلى عودته إليها ، فالوصف بالخروج يدل على ترقب الرجوع ، وفي كلٍ مناسبة لحديث السياق عن تعلّق الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة / المكان ، وفي ذلك أدت (حيث) دورها ببنائها التركيبي الجديد ، إذ أمكن تقدّمها من تقدّم الجملة الثانية المشتملة على الفعل "خرجت" ، فهو محتوى ظرفية (حيث) مما أظهر الوصف من الفعل "خرجت" ، على غير تأخر الفعل في تركيب الموقع الأصلي لـ (حيث) فالأصل : ولِّ وجهك شطر المسجد الحرام حيث خرجت .

والآيات إذ تُقدِّم الحديث عن الخروج من خلال البناء التركيبي لـ (حيث) المتقدمة على جملتي الربط ، تحاكي الحالة النفسية التي تعيش في عسر وتنتظر يسرًا ، وهو أسلوب متّبع في القرآن الكريم نجده في قوله تعالى "سيجعل الله بعد عسر يسرا" (الطلاق : ٧) "إن مع العسر يسرا" (الشرح :٥) فالعسر (الخروج والبعد عن مكة) مُقدَّم ذكره على اليسر (التوجه نحو مكة) لأن النفس تنتظر اليسر ، فتسعد به في الكلام بعد نطق العسر ، كما تسعد باليسر بعد حال العسر .

ج- مناسبة التكرار لمعنى (حيث) :

تكررت آيات تحويل القبلة في سياق واحد لتكون خمس آيات ، وتكررت فيها (حيث) لتبلغ أربع مرات ، وفي تعليل كلا التكرارين مناسبة لمعنى (حيث) ، هذه الآيات هي :

((فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) ((وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)) ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) ((وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)) ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ))

وقد وجه الإسكافي التكرار إلى أن الأولى خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية لأمته ، والثالثة أمر بالتوجه للكعبة عند الخروج من المسجد الحرام ، والرابعة عند الخروج من البلد الحرام ، والخامسة عام في البلاد ، فهو يوجه الآيات الثلاث الأخيرة حسب البعد من الكعبة، ليشمل القرب والبعد ، فيقول : ((وقد كان يتوهم أن للقرب حرمة لا يثبت مثلها للبعد ، فوقعت مظاهرة بالأمر بتولي القبلة في القرب والبعد))[٣٧] وذكر ابن الزبير مَلحظًا لطيفًا يكون معه لكل جملة غرض مختلف عن الأخرى ، فالأولى أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية عام لأمته ، وهما حال الإقامة في المدينة أو نواحيها لعدم تقدم ذكر الخروج ، والثالثة أمر بالتحويل في حال السفر ، والرابعة ليبني عليها الخامسة التي تفيد – ضمنًا من تبعيتها للرابعة– التوجه للكعبة حال السفر[٣٨] ، وعليه كما يقول ابن الزبير : ((لم يتكرر شيء من الآية لمجرد توكيد، بل كل مما يظن تكرارًا مفيد معنى لم يحصل محرزًا مما قبله))[٣٩] ومما ذكره الإسكافي وابن الزبير يمكن تكوين توجيه ثالث للتكرار هذه الجمل ، فإذا كانت الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم والثانية لأمته ، وهو تقرير الحكم دون تقييده بوصف مكان ، فإن الثالثة قد تفيد توجه النبي صلى الله عليه وسلم للكعبة وهو مقيم في المدينة وقد خرج من مكة ، فالمدينة بالنسبة له دار هجرة ، فهي مكان خروج ، وأما الجملة الرابعة فهي عند خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة لأي مكان ، وأما الخامسة فهي لتوجه المسلمين للكعبة في مكان إقامتهم أو حال خروجهم منه .

وهذا التوجه للكعبة رمز لتعلّق المسلم بالتوحيد (مِلّة إبراهيم الذي بنى الكعبة) وبشريعة محمد صلى الله عليه وسلم في أي مكان سواء كان حلًا أو ترحالًا متبرئًا فيها من كل دين غير الإسلام ، وهي بهذه الجمل الخمس تذكر بجمل خمس أخر في ظاهرها تكرار ، وهي للتعلّق بالتوحيد في كل زمان ، وهي آيات سورة الكافرون: ((قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)) فالأولى لعدم تطابق عبادتي لعبادتكم الآن ، والثانية لعدم تطابق عبادتكم مع عبادتي الآن ، والثالثة لعدم تطابق عبادتي لعبادتكم مستقبلًا ، والرابعة لعدم تطابق عبادتكم مع عبادتي مستقبلًا ، والخامسة لتقرير الحكم ، فالجمل الخمس في سورة البقرة لاتخاذ المكان وسيلة للثبات على وجهة واحدة / التوحيد ؛ لإعلان اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ،

والتبرؤ من كل دين آخر ، والآيات الخمس في سورة الكافرون لاتخاذ الزمان وسيلة للثبات على التوحيد والتبرؤ من كل عبادة أخرى .

وتكرار جمل التوجه للكعبة خمس مرات تحديدًا له دلالته الرقمية ، فعدد الصلوات المكتوبة خمس صلوات ، بل إن الأكثر إبهارًا أن لفظ (شطر) الذي ورد خمس مرات في هذه الجمل (وفي المصحف كله) جاء بصيغتين : ثلاث مرات (شطر المسجد الحرام) ومرتين (شطره) بالإضافة لضمير الغيبة ، والصلوات الخمس تؤدى بطريقتين : ثلاث صوات جهرية ، واثنتين سرية وكأن المصلي يضمر فيها الصوت المرتفع.

وتأتي (حيث) في هذه الجمل أربع مرات ، وهو هنا عدد له دلالته أيضًا ؛ إذ تدل (حيث) لغة على المكان والجهة ، والسياق يتحدث عن التوجه إلى الكعبة ، والتوجه إلى الكعبة يكون من جهة من الجهات الأربع ، فإما أن تكون الكعبة بالنسبة للمصلي من جهة الشرق أو الغرب أو الشمال أوالجنوب ، فإذا كان لدينا أربع جهات في أرض الواقع ، فإن السياق يأتي بـ (حيث) أربع مرات عند الحديث عن التوجه للكعبة ، دون ذكر التوجه من جهة معينة من الجهات الأربع ، ليكون هذا التناسب العددي ملحظًا للقارئ إذا أراد الربط بين عدد تكرار (حيث) ومضمون السياق الواردة فيه.

الصورة الرابعة : تبديل جملتي (حيث) في مضمون تبديل مكان الرسالة:

جاء الانحراف بمستويين (انحراف في معنى اللفظ ، وانحراف في التركيب) في موضعٍ هو الوحيد الذي جاءت فيه إحدى جملتي الربط جملةً اسمية (ليكون ذلك انحرافًا ثالثًا عن أسلوبية (حيث) في القرآن الكريم؛ إذ التزم بفعلية جملتي الربط) وذلك في قوله تعالى : ((وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ)) (الأنعام : ١٢٤) وهذا الموضع يكشف عن طريقة التعامل مع المجاز في استعمال (حيث) رفضًا مطلقًا أو قبولًا مقيّدًا بملاحظة المستوى الظاهر من الانحراف دون التوصل إلى الانحراف الحقيقي ، وذلك كما يلي:

أ- التجوّز بخروج (حيث) عن الظرفية بين القبول والرفض :

في هذه الآية الكريمة ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) (الأنعام : ١٢٤) جاءت (حيث) متوسطة بين جملتي الربط مع خروجها عن الظرفية ، ولم تخرج (حيث) عن الظرفية

مع توسطها بين جملتين في غير هذه الآية ، وعند قراءة تناول علماء اللغة والتفسير لهذه الآية الكريمة نلحظ أن جمهور المتأخرين من مفسري القرن السابع الهجري وما بعده يصفون خروج (حيث) عن الظرفية وإن لم يستكملوا دلالته ، ووصف بعضهم هذا الخروج بالتوسع والمجاز ، وذلك لأنهم لاحظوا أن (حيث) في الآية الكريمة لا تحتمل أن تُعرب ظرفًا ، فالمعنى لا يقبل تقدير حرف الجر (في) لأن إعراب (حيث) ظرفًا يقتضي أن علم الله تعالى في مكان محدد ، وبذلك أعربوا (حيث) في هذه الآية مفعولًا به، وسأذكر آراءهم باختصار مع تاريخ وفاتهم لنستخلص من ذلك طريقة وصف الاستعمال المجازي لـ (حيث) فتعامُل العلماءِ مع خروج (حيث) عن الظرفية يوضح تعامُلهم مع توصيف المجاز عمومًا وعلاقته بالقاعدة النحوية ، وإذا كانت مؤلفات القرن السابع الهجري هي التي تطالعنا بإعراب (حيث) مفعولًا به وعدم صحة إعرابها ظرفًا ، فإن أول من قال بذلك هو العالم النحوي أبو علي الفارسي المتوفي سنة (٣٧٧هـ) ونقل مقولته السمينُ الحلبي (٧٥٦هـ) في تفسيره الدُّر المصون، فقال : ((قال أبو علي: لا يجوز أن يكون العامِل في (حيث) "أَعْلَمُ" هذه ظاهرة ، ولايجوز أن تكون (حيثُ) ظرفاً لأنَّهُ يصير التقدير: الله أعلم في هذا الموضع، ولايوصف الله تعالى بأنه أعلم في مواضع وأوقات؛ لأنَّ علمَهُ لايختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة))[٤٠] ويؤكد ابن هشام (٧٦١هـ) في كتابه مغني اللبيب أن الفارسي هو صاحب هذا الرأي، فيقول : ((وقد تقع (حيث) مفعولا به وفاقًا للفارسي وحمل عليه " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ "))[٤١] فالقول بخروج (حيث) عن الظرفية بدأ في القرن الرابع الهجري ، ثم نجد مفسرًا يسبق علماء القرن السابع الهجري بقرنين من الزمان في ربطه بين خروج (حيث) عن الظرفية والمجاز، لكن رأيه لم ينتشر منسوبًا إليه إلا متأخرًا ، هذا المفسر هو الحوفي المتوفي سنة (٤٣٠هـ) صاحب البرهان في علوم القرآن[٤٢]، إذ نقل أبو حيّان المتوفي سنة (٧٤٥هـ) عن الحوفي إعراب (حيث) في قوله تعالى " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " مفعولًا به ، وإن رفض أبو حيان رأي الحوفي ، يقول أبو حيّان : ((وقالوا: (حَيْثُ) لا يُمْكِنُ إقرارها علَى الظّرفيَّةِ هنا ، قال الْحَوْفِيُّ: لأَنَّه تعالى لا يَكُونُ فِي مَكانٍ أَعْلَمَ مِنْه في مكانٍ ، فإذا لم تكنْ ظَرْفًا كانَتْ مفعولًا على السِّعَةِ ، والمفعُولُ عَلى السِّعَةِ لا يُعمَلُ فِيه "أَعْلَمُ" لِأَنَّه لا يَعملُ في المفعولاتِ ، فَيَكُونُ العامِلُ فيه فِعْلٌ دَلَّ عَليهِ "أَعْلَمُ". وقالَ أَبُو الْبَقَاءِ: والتَّقديرُ يَعلمُ موضع رِسالاتِهِ ، وليسَ ظَرْفًا لِأَنَّهُ يَصِيرُ التَّقْدِيرُ يَعلَمُ في هذا المكانِ كذا وليسَ المعنَى عليه، وكذا قدَّرهُ ابنُ عَطِيَّةَ[٤٣] ، وقال التِّبْرِيزِيُّ[٤٤] : (حَيْثُ) هنا اسمٌ لا ظرفٌ انتصبَ انتصابَ المفعولِ ... وما قاله مِن أَنَّه مَفعولٌ به عَلى السِّعَةِ أَو مَفعولٌ به عَلى غيرِ السِّعَةِ تَأْباهُ قواعدُ النَّحْوِ، لأَنَّ النُّحاةَ نَصُّوا عَلَى أَنَّ (حَيْثُ) مِنَ الظُّروفِ الَّتي لا تتصرَّفُ وشَذَّ إضافةُ لَدَى إليها وجرُّها بالياء ونصُّوا علَى أَنَّ الظَّرفَ الَّذي يُتَوسَّعُ فيه لا يَكُونُ إلَّا مُتَصرِّفًا وإذا كانَ الأَمرُ

كذلك امتنعَ نصبُ (حيث) علَى المفعول بـه لا علَى السّعَةِ ولا علَى غيرها، والّذي يظهرُ لي إقرار (حيث) علَى الظَّرفيَّة المجازيَّةِ علَى أَنَّ تَضَمُّنَ "أَعْلَمُ" معنَى ما يتعدَّى إلى الظَّرْفِ فيَكُونُ التَّقديرُ اللَّهُ أَنْفَذُ عِلْمًا حيث يَجعلُ رِسالَتَهُ ، أَي هو نافذُ العلم في الموضعِ الَذي يَجعلُ فيه رِسالتهُ، والظَّرفيَّةُ هنا مجازٌ كما قلنا))[٤٥] فأبو حيان في هذا النص المؤرّخ لتسجيل العلماء للاستعمال المجازي لـ (حيث) يؤرِّخ لأول القائلين بخروج (حيث) عن الظرفية (بعد أبي علي الفارسي) وهو الحوفي الذي عاش في القرن الخامس الهجري ، ويصف الحوفي هذا الخروج بالسِّعة ، والسِّعة والتوسُّع من مصطلحات المجاز المعروفة في هذا القرن[٤٦]، ويتْبَع الحوفي أحدُ معاصريه وهو التبريزي المتوفي سنة (٥٠٢ هـ) ويخالفهما أبو حيان - المتأخر عنهما - في الرأي، وحُجَّة أبي حيّان في رفضه التجوز بخروج (حيث) عن الظرفية مخالفة ذلك لقواعد النحو ؛ فالنحاة – كما قال – نصُّوا على عدم التوسُّع في ظرفية (حيث) .

ولكن أبا حيان نفسه الذي رفض خروج (حيث) عن الظرفية توسعًا ، لاتباعه قواعد النحو ، لا ينكر الاستعمال المجازي لـ (حيث) فيلجأ إلى القول بأنها (ظرفية مجازية) وهكذا يعترف بمجازيتها ويحافظ على ظرفيتها ، ويُضمِّن فعل (أنفذ) ليبقي على ظرفية (حيث) لكن حتى مع تضمينه لم يستقم له تقدير (في) لتكون (حيث) ظرفًا ، ولذلك يقدِّر أبو حيان "نافذ العلم في موضع" وأرى أنه بذلك ابتعد عن معنى الآية ومناسبة نزولها ، فالآية تفيد علم الله بالمكان / الشخص المناسب للرسالة ، وليس نفوذ (دخول) العلم فيه ، فأبو حيان تكلّف التقدير ، واحتاج إلى التضمين ، ورفض القول بالتوسع في استعمال (حيث) مع اعترافه بأنه مجاز ، كل ذلك كي لا يخالف نصوص النحاة .

وعندما نعود لنتتبع القول بمجازية استعمال (حيث) في هذه الآية "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" نجد أن مقولة الحوفي بالتوسُّع في استعمال (حيث) في القرن الخامس الهجري لم تلقَ ذيوعًا في القرن السادس الهجري فلم يذكر الزمخشري (٥٣٨هـ) – وهو المعنِيُّ في تفسيره بالتوسع - خروج (حيث) عن الظرفية في تفسيره للآية [٤٧] وكذلك الرازي (٦٠٤هـ) وهو المعنِيُّ في تفسيره باختلاف الآراء اللغوية خاصة ما يتعلّق بالعقيدة في صفة من صفات الله تعالى ، ولعلّ رأي الحوفي لم يصل إليهما لعدم انتشاره بين العلماء وطلابهم تثاقلًا في قبول المجاز باعتباره خروجًا عن الأصل.

أما علماء القرن السابع الهجري فيتناقلون القول بخروج (حيث) عن الظرفية في هذه الآية مؤيدين ومعلِّلين ، فأبو البقاء العبكري (٦١٦هـ) يقول : ((قولُهُ تعالى: (حَيْثُ يَجْعَلُ) :

(حيث) هنا مفعولٌ بِهِ، والعاملُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: يَعلَمُ موضعَ رسالاتِهِ، وليسَ ظرفًا؛ لأنَّهُ يصيرُ التَّقديرُ: يَعلَمُ في هذا المكانِ كذا وكذا. وليس المعنَى عليهِ. وقد رُوِيَ «حيثَ» بِفتحِ الثَّاءِ، وهو بِناءٌ عند الأكثرين، وقيل: هي فتحة إعرابٍ))[٤٨] ويصف القرطبي (٦٧١هـ) خروج (حيث) عن الظرفية بـ (الاتساع) فيقول : ((و" حيث" ليس ظرفًا هنا، بل هو اسم نصبٍ نصب المفعولَ به علَى الاتساعِ، أَيِ اللَّهُ أَعْلَمُ أهلَ الرِّسالةِ. وكان الأصلُ : اللَّهُ أَعلمُ بِمواضعِ رِسالتِهِ، ثمَّ حُذِفَ الحرفُ، ولا يجوز أن يعملَ " أَعْلَمُ" فِي" حَيْثُ" ويكونَ ظرفًا، لأنَّ المعنَى يَكونُ علَى ذلكَ اللَّهُ أعلَمُ في هذا الموضعِ، وذلكَ لا يجوزُ أن يوصفَ به الباري تعالى)) [٤٩] وبهذا الإعراب قال النسفي (٧١٠هـ) وقدّر المعنى بجملة فعلية فقال : ((حَيْثُ : مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلمُ موضع رسالتِه)) [٥٠] ومع انتشار القول بخروج (حيث) عن الظرفية اتساعًا لتعارض إعرابها ظرفًا مع صفة علم الله تعالى ، في القرن السابع الهجري ، فإن أبا حيان وهو من علماء القرن الثامن الهجري يرفضه موافقة لقواعد النحو ، ويبدله بالمجازية الظرفية ، كما سبق وأن ذكرتُ ، وفي المقابل اختار السمين الحلبي (٧٥٦هـ) المعاصر لأبي حيان القول بخروج (حيث) عن الظرفية ويُفند رأي أبي حيّان بعد رفضه ، فيقول الحلبي عن رأي أبي حيان: ((وهذا القول ليس بشيء، ولكنْ أجازه الشيخ مختاراً له على ما تَقَدَّم ... قلتُ: قد ترك ما قاله الجمهور وتتابعوا عليه وتأوَّل شيئاً هو أعظمُ مما فرَّ منه الجمهورُ، وذلك أنه يُلزمه - على ما قَدَّر- أنَّ عِلمَ الله في نفسه يتفاوت بالنسبة إلى الأمكنة فيكون في مكانٍ أبعدَ منه في مكان، ودعواه مجازَ الظرفية لا ينفعه فيما ذكرته من الإشكال، وكيف يُقال مثلُ هذا؟ وقوله "نَصَّ النحاة على عدمِ تصرُّفها" هذا معارض أيضًا بأنهم نصُّوا على أنها قد تتصرف)) [٥١] ويظهر من كلام السمين الحلبي أن مقولة خروج (حيث) عن الظرفية التي ابتدأها الفارسي في القرن الرابع الهجري – كما ذكر الحلبي – قد أصبحت في القرن الثامن الهجري مقولة الجمهور التي تدعمها الأدلة ، وبلغ الإقرار بها أن لا يعتدُّ بخلافها ، فالقول بظرفية (حيث) "ليس بشيء" كما قال الحلبي ، ومثله وصف الألوسي القول المخالف لخروج "حيث" عن الظرفية في الآية الكريمة ، فقال: ((و«حيث» مفعول لفعل مقدر أي يعلم، وقد خرجت عن الظرفية بناء على القول بتصرفها، ولا عبرة بمن أنكره))[٥٢] وهذا الإقرار بخروج (حيث) عن الظرفية دعى الدكتور يوسف جمعة عاشور إلى القول: ((الأخذ برأي الجمهور أجدَى وأنفع وإن نص النحاة على عدم تصرفها في بعض الأحيان))[٥٣]

ومن خلال هذا التسلسل التاريخي لتعامل العلماء مع استعمال (حيث) في قوله تعالى "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" نستنتج طريقتهم مع توصيف استعمال (حيث) والإقرار بالمجاز في استعمالها ، ومع التجوز في الاستعمال عمومًا، فمع أن ملاحظة خروجها جاء متأخرًا (في

القرن الرابع الهجري) تبعه تأخر ثانٍ في الإقرار بالاستعمال المجازي لـ (حيث) سواء في الآية " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" أو في غيرها ، ففي الآية الكريمة كان الإقرار بخروجها عن الظرفية بعد أكثر من قرنين من الزمان ، ومع وجود من يرفضه لمخالفته رأي النحاة ، فهو تعامل حذرٌ في قبول المجاز الذي يُنظر إليه بمخالفته للقاعدة التي تصف الاستعمال الأصلي، فمع أن المجاز خروج عن الاستعمال الأصلي إلا أنه نسق آخر من شأنه قاعدة أخرى، ولايخضع لقاعدة الاستعمال الأصلي .

ب- محاكاة تبديل موقعي جملتي الربط لأسبقية العلم الإلهي في الواقع الخارجي :

هكذا توقف الدرس البلاغي أمام تجوّز استعمال (حيث) ليكون خروجها عن الظرفية إلى المفعول به من مسائل النحو لا البلاغة ، وتظل كلمة (التوسُّع/ الاتساع) التي وصف بها الحوفي (٤٣٠هـ) هذا الخروج أو كلمة (الظرفية المجازية) التي وصف بها أبو حيان (٧٤٥هـ) هذا الاستعمال ، مبتورة الامتداد البلاغي لأنها لم تعلِّل هذا التجوّز بمضمون السياق الوارد فيه ، فالفرق بين النحو والبلاغة في وصف التركيب سواء أ كان أصليًا أو مجازيًا أن النحو يصف دلالة التركيب (أو ما أفضل تسميته بالوظيفة النحوية للتركيب) أما البلاغة فهي تربط بين دلالة التركيب ومضمون السياق الوارد فيه ؛ بحثًا عن دواعي هذا الاستعمال دون بديله الممكن ، وكلما قويت العلاقة بين دلالة التركيب والمضمون كلما كانت البلاغة في اختيار هذا التركيب دون غيره لمناسبته للمضمون أو لأدائه دلالة تكمِّل المضمون ، لا يُتيح تركيبٌ آخر هذه المناسبة أو هذه الدلالة الجزئية ، وإن كان التركيب الآخر قادرًا على أداء المعنى العام ، فهي بلاغة مناسبة الفروق التركيبية المترادفة لمقام السياق الداخلي (المضمون) أو الخارجي (كأسباب النزول، أو حال المتلقي، أو حال المبدع) .

فنحن الآن أمام تركيب يتصف بدرجة من درجات الخروج عن الأصل (التجوز/ الاتساع/ الانحراف) ليخضع للتحليل البلاغي الذي يربط بينه وبين السياق، والتحليل البلاغي يُظهر أن وراء هذا التركيب (الذي خرج عن الظرفية) دلالة تكشف المعنى الأصلي للآية الكريمة ، فإذا كان الأصل في استعمال (حيث) هو الظرفية ، وأنها تربط بين جملتين وجاءت تلك الجملتين في جميع المواضع القرآنية فعليّتين ؛ فإن أول مؤشر للتحوّل الأسلوبي يقودنا للتحوّل الدلالي هو أن (حيث) في الآية الكريمة " الله أعلم حيث يجعل رسالته" تتوسط جملتين لأول مرة إحداهما اسمية والأخرى فعلية ، وقد يمرُّ هذا الأمر دون استدلال ، لكن إذا أعدنا هذه الآية إلى الأسلوب القرآني في استعمال (حيث) نجده (جملة فعلية + حيث + جملة فعلية) وعليه

فإن أصل الصياغة : (يعلم الله حيث يجعل رسالته) وتصبح (حيث) في هذه الصياغة مفعولًا به وليست ظرفًا ، فإذا أعدنا (حيث) إلى ظرفيتها فإن الصياغة ستكون : (يجعل الله رسالته حيث يعلم) وهنا نأتي إلى بداية التحويل للبناء التركيبي لجملتي (حيث) فالأصل : (يجعل الله رسالته حيث يعلم) أي يجعل الله الرسالة في الموضع/ المكان/ النبي الذي يعلم صلاحيته للرسالة ، ثم حدثت عدّة تحولات ، لكن التحوّل الأول والرئيسي والمقصود دلاليًا هو تبديل جملتي الربط : يعلم الله حيث يجعل رسالته .

ونتج عن هذا التحوّل ما رصدته الدراسات السابقة من خروج (حيث) عن الظرفية إلى المفعول به، لكن هذه النتيجة ليست هي الهدف الدلالي من تبديل جملتي الربط، فالهدف من هذا التبديل الدلالة على أسبقية علم الله تعالى على جعل الرسالة ، فعلم الله الأوَّلِيُّ سابقٌ على خلق البشر وإرسال الرسل ، فهو أعلم بمن يصلح منهم لتحمّله الرسالة، فقدّم جملة (الله يعلم) لأن علم الله تعالى في الواقع الخارجي مقدّمٌ على الخلق والجعل الذي هو خلق ثانٍ.

وفضلًا عن محاكاة تقدّم جملة (الله يعلم) لتقدّم علم الله تعالى على الخلق ، فإن في تقدِّمها تقديم للردِّ على الكافرين المتكبرين الذين يطالبون بالرسالة لأنفسهم ولذويهم ، فقدَّم العلّة التي يُردُّ بها عليهم ، فهو سبحانه أعلم بالصالح الذي يجهلونه أو ينكرونه، فسياق الآية يوضِّح ما هم فيه من حقد يجعلهم رافضين للإيمان ((لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ)) وماهم فيه من كبر وإجرام ومكر استحق الرد عليهم بما يفيد علم الله المسبق والمعلّل للحكم ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) ووعيدهم بنقيض كبرهم وهو الصغار ((سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ)) فالصغار الذي توعدهم الله تعالى به هو مثيل حقيقة حالهم في الدنيا بالنسبة لعلم الله تعالى ، فهم لايعلمون ليحكموا بموضع الرسالة ، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل الرسالة ، فتقديم (الله أعلم) ردٌّ على كبرهم وتحقيق لصغار علمهم وصغار نفوسهم الحاقدة، فكان الأبلغ التقديم الذي ترتّب عليه خروج (حيث) عن الظرفية، فالتجوّز الأول كان بتبديل جملتي الربط لتقديم العلم الإلهي.

وجاء التحوّل الثاني في الآية "الله أعلم حيث يجعل رسالته" بتحويل الجملة الأولى من الفعلية (يعلم الله / الله يعلم) إلى الاسمية (الله أعلم) خلافًا للأسلوب القرآني في استعمال (حيث) ، والغرض من هذا التحوّل ارتباط السياق بالدلالة على ثبوت العلم أزلًا دون تجدُّده بالحوادث، فناسبته الصيغة الاسمية ، يقول عبد القاهر الجرجاني: ((موضوع الاسم على أن يُثْبَتَ به المعنى للشيءِ من غيرِ أن يَقتَضي تجدُّده شيئاً بعدَ شيء ، وأما الفعلُ فموضوعُه على أنه

يقتضي تَجدُّدَ المعنى المُثْبَت به شيئاً بعْدَ شيء))[٥٤] وأن يراد وصف العلم هنا بالثبوت لا التجدّد لأن السياق يَرُدُّ على من يريدون الربط بين الرسالة وحالهم في الرفعة والجاه، فجاء الردُّ بما يفيد ثبوت علم الله تعالى بمن هو أصلح للرسالة أزلًا فلا يتجدّد هذا العلم بتغير أحوال البشر، كما لايتبدل حكمه في إعطاء الرسالة للأصلح ، فصلاح الاختيار للرسالة حكم إلاهيٌ وصفة إلاهيةٌ ترتبط بوصف علم الله الأزلي الثابت، فأداء صياغة علم الله تعالى بالاسمية يناسب ما ارتبط به هذا العلم في السياق من شأن حكم الله تعالى بما فيه صلاح البشر، بينما يأتي علم الله تعالى بصيغة الفعل عندما يرتبط العلم بحوادث البشر، كقوله تعالى: ((وَاللَّـهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)) (محمد:١٩) ((يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)) (الحديد:٤) فإذا كان تقدّم جملة (اللهُ أَعْلَمُ) للدلالة على تقدّم عِلم الله تعالى فهو أزلي، فإن مجيء الجملة بالصيغة الاسمية للدلالة على ثبوت علم الله تعالى وثبوت حُكمِه في اختيار الأصلح لتحمّل الرسالة، فالتحوّل في استعمال (حيث) في القرآن الكريم لما يتطلبه مضمون السياق الوارد فيه.

ج- مناسبة تبديل موقع جملتي الربط لرغبة الكافرين في تبديل شخص الرسول :

العجيب أن هذه الآية تصف رغبة الكافرين في تبديل شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتكون الرسالة لغيره ليؤمنوا بها، وجاءت هذه الآية بأسلوب فريد في استعمال (حيث) وهو تبديل موقع جملتي الربط ، فهناك مناسبة بين مضمون الآية التي تتحدث عن تبديل شخص الرسول للثبات على الإيمان، وأسلوب تبديل موقع جملتي الربط مع ثبات توسط (حيث) ، فالأصل الحديث عن الفعل ثم تعليله ، لأن (حيث) الظرفية والجملة التي بعدها التي تصف (حيث) تفيد تعليلًا للجملة الأولى في الآية الكريمة، فالمعنى: يجعل الله رسالته حيث يعلم، أي: جعل الله رسالته في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعلم صلاحيته للرسالة ، وهذا الأصل هو الأسلوب المتبع في استعمال القرآن الكريم لتقع (حيث) ظرفًا بتوسطها جملتي الربط، فهناك مشاكلة بين أسلوب التبديل ومضمون الرغبة في التبديل، فقد جاء نسق الآية بتبديل الجملتين اللتين تربط بينهما "حيث" وهو نسق من عند الله تعالى، كما أن اختيارَ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم -مخالفة لرغبتكم غيره رسولا- نسقٌ من عند الله تعالى لعلمه بالأصلح، فضلًا عن أن التبديل جاء بتقديم جملة (الله أعلم) التي تحاكي أسبقية علم الله تعالى على جعله الرسل للخلق .

الوسط : انحراف (حيث) بين فرض الواقع ورفض التوصيف والتابع

١- الانحراف ومعيار الأصل :

يلاحَظ التجوّزُ عن الأصل (الانحراف عن القاعدة) عندما نجد أسلوبًا مغايرًا لطريقةِ أداءٍ أخرى؛ إذ يشير تعدّدُ طرق الأداء إلى وجود أصلٍ وخروج عن الأصل، ومن مظان تحديد الأصل أن يؤدي الأصل المعنى البسيط غير المركب، فالخروج عن الأصل يحمل المعنى الأصلي والمعنى المجازي، وبذلك فإن الطريقة التي تؤدي معنًى مباشرًا (غير متعدّد) هي الأصل مثلًا (محمد شجاع) بينما يُحمَّل المعنى المباشرُ درجةً من البُعد في المعنى كلما كانت طريقة الأداء أبعد عن الأصل، فجملة (محمد أسد) تحمل معنى الأصل (محمد شجاع) ومعنى التشبيه والصورة الذهنية المكتسبة منه، ومن ذلك ندرك أن مصطلح عبد القاهر الجرجاني "معنى المعنى" هو إحدى معايير التجوّز في الأداء، وإن كان تحديد معيار الأصل بمقياس قاعدي يجد شيئًا من الصعوبة أو الجدلية تحدّث عنها د. صلاح فضل في كتابه علم الأسلوب[٥٥]، وأجد أن هذه الصعوبة ترجع إلى تنوّع أساليب الخروج عن الأصل إلى درجة مراوغة أحيانًا، وشيوع بعضها، وقرب المسافة بين بعض أساليب الخروج والأصل، هذه الأسباب الثلاثة أراها رئيسية في جدلية معيار الأصل، لكن لا أظن أن قيمة البحث عن المجاز/أساليب الأداء المتعدّدة، تكمُنُ في التحديد الاصطلاحي المعياري للأصل وأساليب الخروج عنه، بقدر الوصول إلى القيمة الجمالية والمعنى المكتسب (معنى المعنى) من أسلوب الخروج عن الأصل.

وإلى هذا يمَّمْتُ وجهة البحث في قسمه الأول إثر ما لاحظتُ من تنوّع طرق أداء القرآن الكريم لتركيب (حيث) مع الجملتين التي تربط بينهما، وليس أدلّ على ذلك من وجود آيتين متشابهتين في المعنى فاختلفت طريقة الأداء بين ((وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)) (البقرة: ٣٥) و((فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)) (الأعراف: ١٩) مما يؤكد وجود أصل والخروج عنه، وهما تظهران من المقارنة (وليست الموازنة)[٥٦] بين طرق الأداء، والتحليل الذي يربط بين طريقة الأداء والسياق/ المقام المحيط به، يقول د. فضل: ((الإضافة المهمة التي تنجم عن المفهوم الحديث لعلم الأسلوب كانحراف عن القاعدة هي إقامة المستوى المقارن للقاعدة اللغوية، حيث يتم بمواجهته إبراز الشكل المميز للأسلوب في النص المحلل، مما يجعل تعريف الأسلوب يتم بطريقة سالبة كالشيء الخاص الذي يختلف عن القاعدة))[٥٧] فاستعمال (حيث) ظرفًا في القرآن الكريم أو غيره هو الاستعمال الذي يؤدي دلالة محدودة لهذه الوحدة اللغوية، لكن القرآن الكريم

يستخدمها في مواضع أخرى لأداء معنًى ثانٍ يناسب السياق، كما رأينا في أداء القرآن الكريم للدلالة على انتقال الحدث (الفعل) المناسب للطلاق الذي لا رجعة فيه في قوله تعالى: ((أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ)) (الطلاق:٦) فيأتي استعمال (من حيث) في موضِع (حيث) خروجًا عن الأصل، إذ ((يمكن تصنيف الانحرافات من وجهة النظر التي تعتمد على العلاقة بين القاعدة والنص المزمع تحليله، فيتم التمييز طبقًا لهذا بين الانحرافات الداخلية والخارجية، ويبدو الانحراف الداخلي عندما تنفصل وحدة لغوية ذات انتشار محدود عن القاعدة المسيطرة على النص في جملته، كما يبدو الانحراف الخارجي عندما يختلف أسلوب النص عن القاعدة الموجودة في اللغة المدروسة))[٥٨] والانحراف الداخلي هو ما يشرحه د. صلاح فضل تحت مسمى "التضاد البنيوي" إذ يختلف أسلوب في النص عن البنية الداخلية له[٥٩].

فالقرآن الكريم يكشف عن وجود درجات تفاوت بين طرق الأداء للمعنى الواحد، وهو بذلك يحقق أصلًا بلاغيًّا هو تعدّد طرق الأداء لتعدّد المقام، وتعدّد طرق الأداء يقوم على مبدأين هما: الاختيار والتركيب، يقول د. صلاح فضل : ((وفي نهاية الأمر يمكن تصنيف الانحرافات طبقًا لتأثيرها على مبدأي الاختيار والتركيب في الوحدات اللغوية))[٦٠] أي أن الأسلوب يتشكل (أو يتغير) من استبدال كلمة مكان أخرى، أو من ترتيب الكلمات، وظهر مبدأ الاختيار في اختيار (حيث) أو (من حيث) لتفيد إحداهما معنى آخر يناسب معنى السياق، يقول عبد القاهر الجرجاني: ((فإن حدث هناك بسبب ذلك الزائد حكم تزول به الكلمة عن أصلها، جاز حينئذٍ أن يوصف ذلك الحكم - أو ما وقع فيه- بأنه مجاز، كقولك في نحو كقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى:١١) إن الجر في "المثل" مجاز لأن أصله النصب))[٦١] وظهر مبدأ التركيب المغاير للأصل في الخروج عن تركيب (حيث) الظرف مع جملتي الربط، فأسلوب "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" (الأنعام :١٢٤) يؤدي المعنى الذي تقع فيه (حيث) ظرفًا وهو : يجعل الله رسالته حيث يعلم ، وهذا هو الأصل الموافق لاستعمال (حيث) الشائع في القرآن الكريم، الذي يجعل (حيث) ظرفًا بين جملتين فعليتين، فأسلوب الآية تضاد بنيوي للاستعمال الأصلي.

٢- نقطة نظام :

إن رصد تنوّع طرق استعمال القرآن الكريم لـ (حيث) مابين الأصل والخروج عنه، يجعل من اليسير التقاط انحرافٍ شائعٍ في استعمال (حيث) في العصر الحديث، إذ أصبحت (حيث) تُستعمل في العصر الحديث بمعنى السبب وكأنها أداة تعليل، فنقول: "أحب مشاهدة التلفاز حيث أتابع المباريات" لكن ليس رصد هذا الاستعمال جوهر قضيتي، إذ لو كانت نهاية

البحث التوقف عند الرصد ، لوجد البحثُ نفسه بين رصدين متباعدين في الزمن دون الربط المنطقي والتسلسل الزمني، ولم يتمكن من رصد ما أسميه بالكوارث الأسلوبية فصاحةً وبلاغةً؛ جرّاء التعامل مع تبعات الاستعمال المجازي، فرصد هذا الاستعمال الحديث لـ (حيث) التي يمكن أن نطلق عليها (حيث) التعليلية سيكون بمثابة قنطرة الولوج لجوهر البحث.

ولم تكن (حيث) في مراوغتها بعيدة عن البحث الحديث، فلقد خصّ د. عودة بحثًا لها بعنوان: "(حيث) بين ثبات قواعد اللغة العربية وتطور صور الاستعمال" وعنوان البحث يدلّ على وجود خرق للقاعدة (انحرافات الاستعمال) إلا أن د.عودة وجّه بحثه الثري وجهده المحمود إلى نوعين من أنواع استعمال (حيث) ، الأول: استعمال (حيث) بدلالتها على الظرفية الزمانية، وليست المكانية فقط، خلافًا لتوصيف جمهور النحاة لـ (حيث) أما الثاني فهو استعمال (حيث) في العصر الحديث بمعنى (سبب) وأرجع ذلك إلى استعمال (حيث) في بعض أبيات الشعر القديم في تركيب (بحيث) الذي يحملُ شيئًا من دلالة السببية، وكذلك دلالتها على الظرفية الزمانية. فيقول د.عودة: ((دراسة (حيث) في واقع استعمالها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي النصوص الشعرية والنثرية قديمًا وحديثًا، وفي واقع استعمال الناس اليوم يدل دلالة قاطعة على تطور دلالة هذا الظرف من حدود المكان إلى اتساع الزمان، كما يظهر في الشواهد العديدة التي تدل على ذلك، ثم إن التطور الكبير في مسيرة هذه الكلمة هو في استخدامها في لغة القانون، حيث أصبح الناس يستخدمونها بدلالة السبب، وبدلالة الشرط، حتى اشتقوا منها كلمة حيثيات))[٦٢] وهذا التحوّل في استعمال (حيث) من الظرفية إلى التعليل هو الذي دفعني هنا إلى البحث في أمرين، أحدهما موقعية هذا التحول من المجاز أو الانحراف ، خاصة وأن البحث رصد تعدّد صور استعمال القرآن الكريم لـ (حيث) مما اعتبره انحرافًا عن الأصل، فهل من صلات بين الاستعمالات المجازية؟ أما الأمر الثاني الذي أراه تصحيحًا لوضع مغلوط أو أكذوبة سخيفة هو التبعات الأسلوبية لاستعمال (حيث) التعليلية، إذ يتحوّل رفض الانحراف (الاستعمال المجازي) إلى رفض تبعاته الأسلوبية ومحاولة إرجاعه قصرًا إلى قانون الاستعمال الأصلي، لتجابه شرعية القانون شرعية الواقع المفروض، أرسطقراطية النحو ضد شعبية المجاز بسند تاريخي يكتنف القداسة من تاريخه، ومن خلال البحث عن تبعات (حيث) التعليلية وجدتُ أن محاولة رفض وجودها ليس وليد العصر الحديث بل صراع تاريخي من قرون؛ إذ ظهر وشاع هذا الاستعمال منذ قرون وليس صحيحًا أنه نتاج العصر الحديث.

٣ ــ تولّد المجاز من دوائر الانحراف :

أ- دوائر الانحراف:

لكل أسلوب من أساليب استعمال (حيث) دلالة مختلفة ، مما يدفع إلى التساؤل عن علاقة الأساليب التي رصدها البحث بالمعنى الأصلي وعلاقتها فيما بينها، أم أن هذه الأساليب عشوائية الخروج عن الأصل؟ فالاستعمال الأصلي لـ (حيث) تركيب نحوي يتكوّن من جملتين تتوسطهما (حيث) الظرفية ، فيقع حدث الجملة التي قبلها في مكان حدث الجملة التي بعدها، مثل قوله تعالى : ((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)) (البقرة :١٩١) ولأن الحدث (الفعل) يقع في زمن فإن هذا التركيب يقبل التوسع في الدلالة بوقوع حدث الجملة التي قبلها في زمن حدث الجملة التي بعدها، أما أساليب الخروج عن الأصل التي يتحدث عنها هذا البحث فقد جاءت بدلالات أخرى ترتبط تدريجيًا بالدلالة التي يؤديها التركيب الأصلي.

فنجد في أسلوب الانحراف من الظرفية الثابتة (حيث) إلى الظرفية المتنقلة (من حيث) جزءًا من المعنى الأصلي هو الظرفية التي تربط بين جملتين/ حدثين، لكن التغيير جاء في ثبوت الحدث، وهو ما استثمره النص القرآني لإظهار دلالة الانتقال ، ونجد أن الانحراف عن توسط (حيث) جملتين تربط بينهما إلى تقدّم (حيث) مع الجملة الثانية على الجملة الأولى ((وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ)) (البقرة : ١٤٤) قد تولّد من وجود معنى الشرط في التركيب الأصلي، فالشرط يقتضي ترتُّبَ حدوث فعل على فعل، ففي آية ((وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)) يوجد معنى الشرط ؛ فلا يمكن أن يحدث قتل الأعداء إلا بعد تحقق الظفر بهم، فهي تفيد: إن ثقفتموهم اقتلوهم، أو حيثما ثقفتموهم اقتلوهم، فترتُّبُ حدوثِ فعل على فعل صفةٌ مشتركة في التركيب الأصلي وأسلوب الانحراف، إلا أن أسلوب الانحراف أظهر المعنى الشرطي بتقدّم (حيث) على جملتي الربط وأعاد ترتيب الجملتين، فتقدّمت الجملة الثانية لتكون فعل الشرط وتأخرت الجملة الأولى لتكون جواب الشرط، وهو ما استعمله القرآن الكريم ليس فقط ليؤدي المعنى الشرطي، بل ليحاكي تحويل مكونات التركيب الأصلي تحويل القبلة فيختص هذا المضمون بهذا الأسلوب.

وأسلوب تبديل جملتي الربط مع توسط (حيث) في قوله تعالى: ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) الذي لفت خروجه عن الأصل الفارسي والحوفي وغيرهما من القدماء فوصفوه "التوسع" ما هو إلا إعادة ترتيب مكونات التركيب الأصلي، لغرض يقتضيه مضمون السياق، فالأصل: يجعل الله رسالته حيث يعلم، ولعل تحديد طريقة بناء التركيب الأصلي هي التي تحدّد طريقة الانحراف، فليس صحيحًا أن الانحراف (الخروج عن الأصل) في هذه الآية الكريمة كان بانتقال (حيث) من الظرفية إلى المفعولية، فذلك نتيجة الانحراف ؛ فمعنى الفعل (يعلم) الذي تمّ تقديمه يقبل التعدّي بالمفعولية على (حيث) وبدافع عقدي وجد من أعرب (حيث) مفعولًا به عدم صلاحية إعراب (حيث) ظرفَ مكانٍ لأن علم الله تعالى لا يحده مكان، لكن أسلوب الانحراف

تولّد من التركيب الأصلي لأن في كليهما حَدَثَين يتواجدان معًا في جزء من الزمن، وإن حدثَ إحدهما قبل الآخر، فتركيب "يكتب الطالب حيث يشرح المعلم" تفيد حدوث الكتابة والشرح في زمن واحد وإن ترتبت الكتابة على أسبقية الشرح ، فإن بدّلنا الجملتين فأصبحت: "يشرح المعلم حيث يكتب الطالب" لأفادت أيضًا حدوث الكتابة والشرح في زمن واحد وإن ترتب الشرح على استعداد الطالب للكتابة، فالأصل أن ما بعد (حيث) يسبق ما قبلها ، مثل "اقتلوهم حيث ثقفتموهم" أو "اجلس حيث يجلس زيد" ولذلك فإن الأصل: "يجعل الله رسالته حيث يعلم" فعلم الله سابق جعله للرسالة، ولكن تأتي بلاغة التبديل بما يقتضيه مضمون السياق، وهكذا يمكن أن يتحول التركيب الأصلي لـ (حيث) إلى أسلوب الانحراف بتبديل جملتي الربط إذا أراد السياق تقديم زمن الجملة الثانية في التركيب الأصلي على الأولى.

ب- تولّد (حيث) التعليلية من الانحراف التركيبي:

إنّ أسلوب تبديل جملتي الربط مع توسط (حيث) يدلّ على العلاقة الترتيبية بين جملتي الربط في التركيب الأصلي، فإحداهما تترتب على الأخرى، مما يجعل إحداهما وكأنها سبب حدوث الأخرى، فالآية ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) تفيد معنى التعليل بين جملتي الربط ، فالمعنى: لماذا يجعل الله رسالته في شخص من يريد؟ لأنه أعلم بصلاحيته للرسالة، وكذلك أسلوب تقديم (حيث) الذي يفيد معنى الشرط فهو يحمل معنى التعليل ، وبعيدًا عن (حيث) يقترب معنى الشرط من معنى التعليل، فجملة : "إن تذكرْ اللهَ تسعدْ" تفيد حدوث جواب الشرط بسبب حدوث فعل الشرط، فمن الممكن أن نفيد من أسلوب "حيث أردت الصلاة فولِّ وجهك للقبلة" معنى: لماذا أولّي وجهي للقبلة؟ لأنك أردت الصلاة، وفي كلا أسلوبي الانحراف (تقدّم حيث أو توسطها مع تبديل جملتي الربط) جاء ترتيب جملتي الربط مخالفًا للأصل؛ لأن الأصل الذي تتوسط فيه (حيث) الظرفية جملتي الربط تكون فيه الجملة الثانية متأخرة في الحدوث عن الجملة الأولى، مما يحمل معه دلالة التعليل إذا كان الترتيب لتسبب الثانية في الأولى، فتقول: يكتب الطالب حيث يشرح المعلم، الطالب يكتب لأن المعلم يشرح ما يريد الطالب تسجيله، وتكون دلالة التعليل خافتة مع وجودها في مثل: "اقتلوهم حيث ثقفتموهم" فسبب تمكنهم من قتل أعدائهم الظفر بهم، ومن ذلك نلاحظ أن الترتيب الأصلي لتركيب (حيث) : (نتيجة + حيث + سبب) حتى في الجمل الافتراضية التي تبدو فيها دلالة التعليل بعيدة يمكن ملاحظة هذه الدلالة ، فمثلًا جملة النحاة التي استشهدوا بها على الظرفية المكانية لـ (حيث): "اجلس حيث يجلس زيد" تقبل معنى: لماذا تجلس هنا؟ لأن زيدًا يجلس هنا، وإن لم تكن دلالة التعليل ممكنة في كل أمثلة التركيب الأصلي؛ فإن الأظهر أن البناء التركيبي الذي جعل الجملة الأولى تابعة وتالية في

الحدوث للجملة الثانية أتاح بدلالته الترتيبية الزمنية وجود دلالة الترتيب السببي في بعض الأمثلة، فكثيرًا ما يؤدي الترتيب الزمني للأحداث إلى أن يكون الحدث الأسبق زمنًا سببًا وشرطًا لحدوث التالي له، ومن ذلك ندرك أن انحراف (حيث) الظرفية إلى (حيث) التعليلية، أسلوب تولّد من بناء التركيب الأصلي الذي يربط بين جملتين متعاقبتين في الحدوث، وقد تجتمع دلالة الظرفية ودلالة التعليل في جملة واحدة لتداخل المعنى في الجملة، مثل الجملة المأثورة : "علِّقْ سَوْطَك حيث يراه أهْلُك" فـ "حيث" هنا ظرفية بمعنى: علّق سوطك في المكان الذي يراه أهلك، وهي تصلح للتعليل بمعنى: علّق سوطك كي يراه أهلك، وسبب اجتماع الظرف والتعليل في (حيث) أن وجود السوط في المكان علّة حدث الجملة الثانية (رؤية السوط) فالظرف عّلة الحدث الثاني.

فأساليب الانحراف توّلدت من الأصل وهو شرط المجاز عند عبد القاهر ؛ فيقول: ((ثم اعلم أن في إطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطًا، وهو أن يقع نقله على وجه لا يَعرَى معه من ملاحظة الأصل))[٦٣] وهو أمر طبعي ، لكن تحليلها يكشف أن هذه الأساليب طرق أداء متعدّدة لكل طريق مناسبته، فيمكن أن نستعمل التركيب الأصلي والأساليب التي خرجت عنه بما يقتضيه السياق، فمثلًا التركيب الأصلي (يقيم الناس حيث يبني المهندس) يخرج إلى الظرفية المتنقلة (يقيم الناس من حيث يبني المهندس) ويخرج إلى تقدّم (حيث) (حيث يبني المهندس يقيم الناس) ويخرج إلى تبديل جملتي الربط مع توسط (حيث) وتظل بمعنى مكان (يبني المهندس حيث يقيم الناس) ويخرج إلى (حيث) التعليلية (يبني المهندس حيث يقيم الناس) أي (كي يقيم الناس) وبناء عليه تتعدّد أغراض المقام فوصف إقامة الناس مكان بنايات المهندس يختلف عن وصف تتدرجهم في إقامتهم في تلك البنايات، ووصف حتمية الإقامة في بنايات المهندس يختلف عن وصف أسبقية بناء المهندس للمكان ليهيئه للناس قبل حاجتهم له، ويختلف عن وصف سبب بناء المهندس، فهي طرق الأداء القائمة على النظام النحوي ((ومن أجل ذلك كله اهتم عبد القاهر بالنحو لا لذاته ولا لإعرابه، ولا لتحديد أنواعه وكلماته، بل لوضعه وترتيبه من تقديم وتأخير، وتمييز وتوكيد إذا عرفت ما يوجب هذه العلل ولم تقتصر على مواضعها فحسب، ومن هنا تنقلب هذه العلل نكتًا بلاغية تستحق أن تدرس في البلاغة بل تستحق أن تدرس على أنها بلاغة))[٦٤] فبلاغة هذه الأساليب تظهر من خلال أدائها لمعنى يخالف ولو قليلًا المعنى الأصلي ، والدلالة الفاصلة/ المختلفة بين المعنى الذي يؤديه أسلوب الانحراف والمعنى الأصلي بمثابة معنى المعنى الذي يستدعيه السياق في النص البليغ إذا أحسن توظيف معنى المعنى للغرض المناسب له، إذا هي بلاغة اختيار الأسلوب أو طريق الأداء المناسب للمقام.

ج- تولّد (حيث) التعليلية من التوسّع اللفظي:

تكشفُ النصوص التراثية (وسيأتي استقراء بعضها بتسلسل تاريخي) عن أنّ تحوّل (حيث) من الظرفية إلى التعليلية كان للتوسّع اللفظي مسلك فيه؛ فإذا كانت الدلالة الأصلية لـ (حيث) هي المكان، فلقد حدث توسّع جزئي في هذه الدلالة لتكون: الجهة المكانية الحسية، وذلك من خلال تركيب (من حيث) مثل قوله تعالى: ((إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)) (الأعراف : ٢٧) ونجد استعماله عند الجاحظ : ((فلا يبقى عصفور من حيث يسمع صياحهما أو يسمع أصواتهما إلّا جِئنَ))[٦٥] ثم نجد توسعًا في استعمال (من حيث) بدلالتها على الجهة المعنوية مثل قول الجاحظ: ((وقد ثبت للكلب استحقاق المدح من حيث أراد أن يهجوه منه))[٦٦] ثم يحدث التوسع من معنى الجهة إلى معنى السبب، مثل قول أبي هلال العسكري: ((سُمِّيَ مجمَلا من حيث يتناول جملة مسميات))[٦٧] فلفظ الجهة المرادف للمكان، جاء للجهة المعنوية ثم للسبب، وهو مثل قولنا المعاصر: يعجبني المديرُ من جهة متابعته خطوات التنفيذ، وهذا التوسع اللفظي الذي وَلَّدَ معنى التعليل في (حيث) يحيلنا إلى استعمال القرآن الكريم لتركيب (من حيث) بدلالة تختلف عن استعمال (حيث) وهذا التركيب نفسه فيما بعد كان سبيلًا للتوسع اللفظي - في غير القرآن الكريم - من معنى الجهة إلى معنى السبب، وهو ما يلفت النظر إلى العلاقة بين درجات المجاز، وكذلك العلاقة بين الانحراف التركيبي والتنامي اللفظي.

ومن التوسع اللفظي الذي ساعد على تولّد مجاز (حيث) التعليلية أن المكان - وهو المعنى الأصلي لـ (حيث) - جزءٌ من الحدث في الجملة الثانية الذي هو سبب الجملة الأولى، فيأتي المجاز بأداء (حيث) الظرفية (التي تفيد مكان الحدث المسبِّب) دلالة أداة تعليل توضح علاقة الحدث المسبِّب بالنتيجة، فيحدث المجاز بين مكان السبب وإظهار دلالة السبب؛ فمكان الحدث المسبِّب جزء منه تطغى عليه دلالة السبب كدلالةٍ كُلِّيةٍ للحدث ، فمثلًا : انتصر القائد حيث وحّد جنده ، (حيث) هنا تعليلية وهي ظرفية أيضًا، فالمعنى أن القائد انتصر لأنه وحّد جنده، يفيد انتصر القائد مكان توحيد جنده، فعندما يصبح الحدث سببًا في حدوث فعل آخر في مكان تواجده يوجد رابطان، هما السببية والمكانية، ولأن السببية كلُّ معنى علاقةِ الحدث بالحدث الآخر ظهرت في أداة الربط (حيث) وأصبحت معناها بدلًا من مكانية الحدث التي هي جزء أقل أهمية في العلاقة المعنوية بين الحدثين، فهو تعبير بالكل عن الجزء بلغة المجاز المرسل.

ومن الممكن تجميع العلاقات المجازية التي أدت إلى (حيث) التعليلية في هذا الجدول:

السبب الأول : الانحراف التركيبي		
درجة الانحراف	التركيب	الدلالة
أصل	جملة (١) + حيث + جملة (٢)	ظرفية مكانية
أولى	جملة (١) + من حيث+ جملة (٢)	ظرفية انتقالية
ثانية	حيث + جملة (٢) + جملة (١)	الشرطية ويتضمن معنى السبب
ثالثة	جملة (٢) +حيث + جملة (١)	تجريد من الظرفية وإتاحة معنى السبب

السبب الثاني : التوسع الفظي		
درجة التوسع	من حيث	حيث
أصل	من حيث = جهة مكانية	حيث= مكان الحدث
أولى	من حيث = جهة معنوية	حيث= مكان الحدث وزمانه
ثانية	من حيث = من جهة / من سبب	حيث = سبب الحدث

د- مزاحمة المجاز للأصل:

إن العلاقة بين أساليب الانحراف والتركيب الأصلي في استعمال (حيث) توضح أن أسلوب الانحراف يأتي من خلال التوسّع في المعنى الأصلي بتغيير جزء من المعنى الأصلي وتغليب هذا الجزء المتغير في دلالته على الأسلوب، وهناك تدرّج في درجة الانحراف ، فيتغير المكان الثابت إلى المكان المتنقل، وتغلُب دلالة الترتيب والشرط على دلالة تبعية الحدوث في المكان من تقديم (حيث) وجملة الربط الثانية على الجملة الأولى، ويخفت معنى الظرف المكاني في (حيث) مع تبديل جملتي الربط ليسهل تجوّزها في المعنى من الظرفية إلى السببية، لذلك نقول أن (حيث) تعليلية في مثل: (سافرت إلى القاهرة حيث أبحث عن كتاب) ومن الممكن إعادتها للأصل بيسر إذا بدّلنا جملتي الربط فتكون ظرفية (أبحث عن كتاب حيث سافرت إلى القاهرة) فما كان ليتغير معنى اللفظ بتغير ترتيب التركيب سوى أن هذا اللفظ يحمل المعنيين معًا، لكن ترتيب التركيب يُغلِّب أحدهما على الآخر، فالانحراف في استعمال (حيث) نتج من علاقة مكونات التركيب النحوي داخله، هذا أمر، والأمر الآخر اختلفت أساليب الانحراف في درجة انحرافها (بعدها عن المعنى الأصلي) ولذلك ظهرت في صورة التدرّج، فمن تغيير جزئي

في المعنى إلى تغليب معنى ثم إزاحة المعنى الأصلى، لدرجة أننا أصبحنا لانكاد نشعر بالمعنى الأصلي، فعندما نستعمل (حيث) التعليلية في مثل (سافرت إلى القاهرة حيث أبحث عن كتاب) لا يظهر أمامنا المعنى الأصلي لـ (حيث) وهو الظرفية المكانية، وكثيرًا ما يحدث اختفاء المعنى الأصلي في الاستعمال المجازي الذي يقول عنه د. محمد عبد المطلب: ((وتكرار هذا الاستخدام المجازي يتحوّل بدوره إلى ظاهرة لغوية مألوفة ، قد تَفقِد مع مرور الزمن قدرتَها الإيحائية، وقدرتها التأثيرية في نفس متلقيها، كما تفقد في الوقت نفسه قدرتها على إشباع عملية الإبداع والخلق والابتكار لدى المنشئ... وعندما تصبح الكلمة في استعمالها الجديد حقيقة مألوفة يجب نسيان أصل الاستعمال))[٦٨] ويذكر د. محمد عبد المطلب قول القدامى مثل ابن جني والزمخشري بأن ((المجاز إذا ما غلب في الاستعمال لحق الحقائق))[٦٩] وهذا ما حدث مع أساليب (حيث) فلقد فرض المجاز نفسه وأصبح شائعًا لدرجة نسيان الأصل، ومن هنا كانت المشكلة ؛ إذ أن نسيان الأصل أدى تلقائيًا إلى نسيان المجاز والتعامل مع أسلوب الانحراف على أنه أحد أمرين: إما أنه لحن أو أنه أصل.

ولعل هذا النسيان أحد الأسباب التي لم تحظ من أجلها أساليب استعمال (حيث) في القرآن الكريم بالتحليل الذي يكشف علاقة خروجها بالتركيب الأصلي، والذي يوضح دلالتها وعلاقة هذه الدلالة بالسياق، وسبق أن ذكرتُ الاختلاف في تحليل المفسرين واللغويين لقوله تعالى ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) (الأنعام :١٢٤) إذ لفت انتباههم وجود خروج في الاستعمال؛ سمّاه بعضهم بالاتساع، لكنهم حصروه في إعراب (حيث) دون البحث عن دافع الاتساع وصلته بالأصل، وبدا الحذر واضحًا من قبول فكرة إدراج أسلوب هذه الاية الكريمة في أنواع المجاز، والتعامل معه كأسلوب له دلالته التي توصل إلى بلاغته.

فلقد كان النقد العربي القديم حذِرًا من دراسة مجازية الاستعمال على الرغم من قدرته على تحديد الاستعمال المجازي؛ ولعل الميل إلى نمطية الاصطلاح وإلى الوقوف عند حدّ التعريف الموروث كان حائلًا من التوسع في دراسة المجاز؛ مع التحرّج من التوسع في أساليب المجاز خاصة في القرآن الكريم لارتباط تعريف المجاز بمقابلة الحقيقة، فهو حذر ملحوظ يصف د. محمد عبد المطلب أصحابه بقوله: ((كانوا يتحركون في إطار ديني محدّد، وتنتابهم كثير من الهواجس والشكوك لخوفهم من الوقوع في شبهة التجسيد، فكان كلامهم في المجاز ممتزجًا بحذر المتديّن))[٧٠] والسبب الثالث الذي صرّح به أبو حيان عند تفسير ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) بقوله عن السِّعة (المجاز) فيها: ((تَأْباهُ قواعدُ النَّحْوِ))[٧١] فالمجاز خروج عن الاستعمال الذي تقوم عليه القاعدة النحوية، وأيًا ماكانت الأسباب فإن النتيجة واحدة؛ مفادها تجاهل أساليب استعمال (حيث) وما بينها من صلات.

٤- شيوع (حيث) التعليلية قديمًا:

إذا كان من أسباب إقصاء أساليب استعمال (حيث) في القرآن الكريم عن دائرة المجاز أن هذه الأساليب مع ما ينتج عنها من تغيير في معنى (حيث) الظرفية المكانية تحافظ على جزء من هذا المعنى الأصلي ، وهو ما يكون مبررًا لإبعادها عن المجاز الذي شاع تعريفه بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له، فتعامل معه الدرس البلاغي في كثير من الأحيان على أنه نقل كامل لمعنى اللفظ وليس توسّعًا أو تغييرًا جزئيًا في معناه؛ فإنّه من العجيب تجاهل استعمال (حيث) للتعليل قديمًا وعدم إدراجها في المجاز على الرغم من نقل معناها من الظرفية إلى السببية.

فخلافًا لما نتصوّره عن (حيث) التعليلية من أنها استعمال حديث، وهوما ذكره د. عودة بقوله: ((حتى إذا كان العصر الحديث رأيت الكلمة تتشكل في صيغ جديدة، ودلالات متطورة، لم تكن معروفة من قبل، وجدت (حيث) تفيد السببية والتعليل مثلما تفيده (الباء) أو (من) أو (عن) في حروف الجر))[٧٢] يظهر من خلال قراءة النصوص التراثية شيوعَ استعمال (حيث) بمعنى السبب، ومن دون استعمال حرف جر الباء الذي يفيد السببية؛ وهو ما يدلّ على حدوث تغيير في معناها، ومما يؤكد شيوع استعمال (حيث) التعليلة قديمًا تصدي ابن هشام الأنصاري المتوفي (٧٦١هـ) لتركيب يتعلّق باستعمال (حيث) للتعليل، وقبل عرض نص ابن هشام أعرض بعض أمثلة استعمال (حيث) للتعليل قديمًا :

في القرن الثالث الهجري: لم أجد استعمال (حيث) للتعليل فيما أُلِّف قبل القرن الثالث الهجري، ووجدتُ استعمالها عند محمد بن سعد الزهري (٢٣٠هـ) في كتابه الطبقات الكبير، فمن الجزء الثاني حتى نهاية العاشر وردت (حيث) مائة وثلاث عشرة مرة، منها ثلاث مرات فقط تحتمل (حيث) معنى التعليل، بنسبة (٣%) وهي نصوص تُنسب لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم:

- ((وَيُقَالُ إِنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ قَدِمَ بِالْحُلَّةِ فِي هُدْنَةِ الْحُدَيْبِيَةِ وَهُوَ يُرِيدُ الشَّامَ فِي عِيرٍ ، فَأَرْسَلَ بِالْحُلَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْبَلَهَا وَقَالَ : "لا أَقْبَلُ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ" . قَالَ حَكِيمٌ : فَجَزِعْتُ جَزَعًا شَدِيدًا حَيْثُ رَدَّ هَدِيَّتِي ، فَخَرَجْتُ فَبِعْتُهَا بِسُوقِ النَّبَطِ ...))[٧٣] فالمعنى يقبل : جزعتُ جزعًا شديدًا لأنه ردّ هديتي.
- ((وَكُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْلَ شِرْكٍ ، فَهَدَانَا اللَّهُ بِكَ وَتَنَقَّذْنَا بِكَ مِنَ الْهَلَكَةِ ، فَاصْفَحْ عَنْ جَهْلِي وَعَمَّا كَانَ يَبْلُغُكَ عَنِّي ، فَإِنِّي مُقِرٌّ بِسَوْأَتِي ، مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " : وَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ بِكَ حَيْثُ هَدَاكَ لِلإِسْلامِ ، وَالإِسْلامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ))[٧٤]

- ((فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ " . فَقَالَ النَّضِيرُ : فَوَ اللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ نِعْمَةً أَفْضَلَ مِمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ ، حَيْثُ لَمْ أَمُتْ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ قَوْمِي))[٧٥] وفي هذا النص يُرجح معنى التعليل في (حيث) عن الظرفية؛ لأن المعنى غير مستساغ أن يكون وقت الإنعام بالإسلام وقت الموت، وإنما المعنى: نعمة الله عليّ عظيمة لأني أسلمتُ قبل مجيء الأجل.

وفي القرن الثالث أيضًا نجد الجاحظ في كتابه الحيوان يستعمل (حيث) اثنتين وتسعين مرة، ما يحتمل منها معنى التعليل مرتان، بنسبة (٢%) وهي في النصوص الآتية:

- ((وكانت النار معظّمة عند بني إسرائيل، حيث جعلها الله تعالى تأكل القربان، وتدل على إخلاص المتقرّب))[٧٦]
- وقال في وصف الذئب : ((ولا أعلم في الأرض خلقا ألأم من هذا الخلق، ولا شرّا منه، ويحدث عند رؤيته الدّم له في صاحبه الطمع، ويحدث له في ذلك الطمع فضل قوة، ويحدث للمدمّى جبن وخوف، ويحدث عنهما ضعف واستخذاء ، فإذا تهيأ ذلك منهما لم يكن دون أكله شيء. والله أعلم حيث لم يعط الذئب قوة الأسد، ولم يعط الأسد جبن الذئب الهارب بما يرى في أثر الدم من الضعف))[٧٧]

وتكرر لدى الجاحظ استعمال (حيث) ليفيد بها تعليل رأيه بالاستشهاد بنص، مما يجعلها تقبل معنى التعليل كما تفيد معنى الظرفية (حين) وذلك في مثل قوله : ((هل فكرت في النحلة والعنكبوت والنملة؟ أنت ترى الله تقدّس وعزّ كيف نوّه بذكرها ورفع من قدرها، وأضاف إليها السّور العظام، والآيات الجسام، وكيف جعل الإخبار عنها قرآنا وفرقانا، حيث يقول: "وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ" (النحل:٦٨)))[٧٨]

<u>في القرن الرابع الهجري:</u> جاءت (حيث) في كتاب الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري (نحو ٣٩٥هـ)[٧٩] ثلاثين مرة ، منها خمس مرات تفيد التعليل، بنسبة (١٦%) وقد استعملها في تركيب (من حيث) وهي في قوله :

- ((والأول هو العموم وما شاكله لأن ذلك قد سُمي مجملا من حيث يتناول جملة مسميات))[٨٠]
- ((الفرق بين قولك لا يحبه وقولك يبغضه: أن قولك لا يحبه أبلغ من حيث يتوهم إذا قال يبغضه إنه يبغضه من وجه ويحبه من وجه))[٨١]

- ((ألا ترى أنه قد يكون الشئ سفهًا وإن لم يكن ضده حلما، وهذا نحو صرف الثواب عن المستحق إلى غيره، لأن ذلك يكون ظلمًا من حيث حرمه من استحقه ، ويكون سفها من حيث وضع في غير موضعه))[٨٢]
- ((والواجب يجب في نفسه من غير إيجاب يجب له من حيث أنه غير متعد، وليس كذلك الفرض لأنه متعد))[٨٣]

ومن علماء القرن الرابع الراغب الأصفهاني (٤٠٢هـ)[٨٤] ونجد في كتابه مفردات ألفاظ القرآن لفظ (حيث) مائتين وثلاث وثلاثين مرة، منها خمسين مرة تفيد التعليل بنسبة (٢١,٥%) أربع وأربعون مرة منها في تركيب (من حيث إن) وأكتفي هنا بذكر بعضها وفي الهامش توثيق لبقية المواضع[٨٥] :

- ((فإنه سمى اكتسابها لأولادها جُرما من حيث إنها تقتل الطيور أو لأنه تصورها بصورة مرتكب الجرائم لأجل أولادها))[٨٦]
- ((وقيل: للكمأة: فطر، من حيث إنها تفطر الأرض فتخرج منها))[٨٧]
- ((وسمّاه مائدة من حيث إنّ العلم غذاء القلوب كما أنّ الطّعام غذاء الأبدان))[٨٨]
- ((ولم يذكر الله الموت بلفظ الهلاك حيث لم يقصد الذم إلا في هذا الموضع))[٨٩]

<u>في القرن الخامس الهجري :</u> استعمل عبد القاهر الجرجاني (حيث) في كتابه أسرار البلاغة مائتين وثلاث عشرة مرة، وجاءت بمعنى التعليل اثنين وأربعين مرة[٩٠]، بنسبة (٢٠%) ومن اللافت للنظر استعمال تركيب (من حيث) مائة وست وستين مرة بمعنى (من جهة) ولا تفيد معنى الانتقال كما استعملها القرآن الكريم، مثل قول الجرجاني: ((ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ))[٩١] ومن مواضع استعمال (حيث) بما يفيد التعليل :

- ((فانظر أتتصور أن يكون ذلك للفظه من حيث إنك أنكرت شيئا، من حروفه، أو صادفت وحشيا غريبا، أو سوقيا ضعيفا؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ في الذكر))[٩٢]
- ((فإنها مفيدة من حيث أراد أن يعطيها شبها مما يعقل))[٩٣]
- ((فكان ذلك مجازاً في المُثبَت، من حيث جعل ما ليس بحياةٍ حياةً على التشبيه))[٩٤]
- ((ولزومِ الحكم بحذفٍ أو زيادةٍ، من أجل الكلام نفسِه، لا من حيث غَرَض المتكلم به))[٩٥]

ومن علماء القرن الخامس الهجري أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) مؤلِّف كتاب إحياء علوم الدين، وقد جاءت (حيث) في الجزء الأول من إحياء علوم الدين مائة وواحدة وخمسين مرة ، منها خمس وثلاثون مرة تفيد فيها (حيث) التعليل بنسبة (٢٢%)[٩٦] منها سبع عشرة مرة في تركيب (من حيث إن) ومن هذه المواضع :

- ((والذي يُطلب لذاته ولغيره فكسلامة البَدن، فإن سلامة الرِّجْل مثلاً مطلوبةٌ من حيث إنها سلامة للبَدن عن الألم، ومطلوبة للمشي بها))[٩٧]
- ((وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرْك))[٩٨]
- ((وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمِنَ من الوجوب بانقطاع الوحي))[٩٩]

في القرن السادس الهجري: نجد في هذا القرن الزمخشري (٥٣٨هـ) وقد استعمل (حيث) للتعليل بكثرة؛ فقد استعمل (حيث) في الجزء الأول من تفسيره الكشاف مائة وثلاثين مرة ، منها ثمانٍ وستون مرة تفيد التعليل، بنسبة (٥٢%)[١٠٠] وجاءت (حيث) التي تفيد التعليل عند الزمخشري دون سابقة حرف جر (من) ولاحقة (إن) فيما عدا سبع مرات، فإذا كان من سبقوه استعملوا (حيث) للتعليل في تركيب (من حيث) غالبًا، فإن الزمخشري استعمل (حيث) للتعليل مباشرة مما يدلّ على ظهور التحوّل من معنى الظرفية في (حيث) إلى السببية دون الحاجة إلى مسوّغ حرف الجر الذي يقرّب معنى التعليل، ومن هذه المواضع التي استعمل فيها لزمخشري (حيث) للتعليل :

- ((وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل))[١٠١]
- ((إن عادى جبريلَ أحدٌ من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابًا مصدقًا للكتب بين يديه))[١٠٢]
- ((وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم))[١٠٣]
- ((كان بكم يا أمة محمد رحيما حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة))[١٠٤]

وشيوع (حيث) التعليلية عند الزمخشري في القرن السادس لا يلزم شيوعها بالقدر نفسه عند علماء هذا العصر، فليست نسبة استعمال (حيث) التعليلية عند عالم معين هي نسبة استعمالها في القرن الذي عاش فيه، وإنما مؤشر لقدر تواجدها في هذا القرن، فمن علماء القرن السادس فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) ولا نجده يستعمل (حيث) التعليلية بالقدر الذي استعمله الزمخشري ، فالرازي في الجزء الأول من تفسيره (التفسير

الكبير) استعمل (حيث) تسعًا وثلاثين مرة، منها سبع مرات للتعليل، بنسبة (١٨%)[١٠٥] ومن هذه المرات السبع:

- ((ولا أخاطبُكَ أيضًا بِلفظةِ (أنتَ) لأنَّ تلكَ اللَّفظةَ تُفِيدُ التِّيهَ والكبرَ حيثُ تقولُ الرُّوحُ إنِّي قد بلغتُ مبلغًا صرتُ كالحاضرِ في حَضرَةِ واجبِ الْوُجُودِ))[١٠٦]
- ((سمَّاهُ نِصفًا مِن حيثُ إنَّ بعضهم راضونَ وبعضهم ساخطونَ))[١٠٧]
- ((واللَّهُ تعالى إلهُ العالَمِينَ من حيثُ إنَّهُ هُوَ الَّذِي أخرجهَا من العدمِ إلى الوُجُودِ، وهو ربُّ العالَمِينَ مِنْ حيث إنَّهُ هو الَّذي يُبقِيهَا حال دوامهَا واستقرارها))[١٠٨]

ففي هذا النص الأخير – مثلًا- جاء تركيب (من حيث) بمعنى (من جهة) ويقبل معنى لام التعليل (لأنه هو...) ويلاحظ الفرق بين دلالة (من حيث) هنا في استعمال الرازي، ودلالة (من حيث) في قوله تعالى ((ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ)) (البقرة: ١٩٩) وهذا الفرق هو درجة الانحراف في الاستعمالين.

في القرن السابع الهجري : نجد ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ) في كتابه "المثل السائر" استعمل (حيث) مائة وست عشرة مرة، منها ثلاثون مرة تفيد التعليل، بنسبة (٢٦%)[١٠٩] ومن هذه المواضع:

- ((إلا أنّا لم نجد شيئا ندلّ به عليه سوى أن جعلناه شبيها بالأسد ؛ حيث كانت هذه الصفات مختصة به))[١١٠]
- ((وإنما حسن إيرادهما معا في معرض واحد لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به وبين الكفار من قومهم؛ حيث لم يؤمنوا بالله وحده))[١١١]
- ((وربما ظن أن هذا البيت وما يجري مجراه تجنيس؛ حيث قيل فيه: معقول وعقال))[١١٢]

والفاصلة المنقوطة قبل (حيث) في النصوص السابقة موجودة في الكتاب المطبوع؛ مما يدل على أن واضع الفاصلة المنقوطة في العصر الحديث أفاد التعليل من (حيث).

ولابن الأثير أسلوب في استعمال (حيث) للتعليل؛ فنصف استعماله (حيث) التعليلية جاء بتقديم (حيث) وجملة السبب التي تليها على جملة النتيجة، كمن يقول: وحيث ذاكر الطالب جيدًا نجح بتفوق، فمن ذلك قول ابن الأثير:

- ((ومن ههنا ورد قول النبي صلّى الله عليه وسلّم : "المؤمن لا يُلْسع من جُحر مرّتين" وحيث قال : "يُلسع" زال اللبس؛ لأن اللّسع لا يكون إلا للحية وغيرها من ذوات السموم))[١١٣] فمعنى كلامه : زال اللبس لأنه قال "يُلسع".

ومن علماء القرن السابع الهجري القرطبي (٦٧١هـ) الذي استعمل (حيث) للتعليل وإن لم يكن بالكثرة التي استعملها ابن الأثير؛ ففي الثلاثة أجزاء الأولى من تفسيره استعمل القرطبي (حيث) مائة وخمس وثمانين مرة، تفيد التعليل في عشرين مرة منها، بنسبة (١١%)[١١٤] ومن هذه المواضع :

- ((فحمدَ نَفسَهُ عنهُمْ، لِتَكُونَ النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم بِهِ ثِقَلَ الْمِنَّةِ))[١١٥]
- ((وسمّاها اللَّهُ حُجَّةً وحَكَمَ بفسادِها حيث كانت مِنْ ظَلَمَةٍ))[١١٦]
- ((وجعلَ رِزقهُمْ بِغيرِ حسابٍ مِنْ حيث هو دائم لا يتناهى))[١١٧]

<u>في القرن الثامن الهجري وما بعده</u> نجد في القرن الثامن الهجري ابن كثير (٧٧٤هـ) في الجزء الأول من تفسيره يستعمل (حيث) تسعًا وستين مرّة، منها ثلاث عشر مرات للتعليل بنسبة (١٩%)[١١٨] ومن ذلك قوله :

- ((يُبيِّن تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادَّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها))[١١٩]
- ((ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد))[١٢٠]

وذكر ابن كثير نصًا قديمًا تفيد فيه (حيث) التعليل، وهو: ((عن أبي قَزَعَة أنَّ عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أمِّ المؤمنين ، يقول : سمعتها تقول...))[١٢١] ويستعمل ابن كثير (حيث) في تركيب (حيث قال) أو (حيث يقول) إحدى وعشرين مرة، بنسبة (٣٠%) وهو في ذلك مثل الجاحظ الذي يستعمل (حيث) للربط بين رأي ونص يؤكد صحة الرأي، مما يجعل (حيث) تقبل معنى التعليل كما تفيد معنى الظرفية (حين) ومن أمثلة ذلك عند ابن كثير قوله: ((وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " (التوبة : ١٢٨)))[١٢٢] ونجد عند ابن كثير لفظ (الحيثية) ثلاث مرات، وإن كان استعمال ابن كثير له بمعنى الجهة إلا أن هذا الاشتقاق جاء استعماله جمعًا في العصر الحديث بمعنى الأسباب، ومن ذلك قول ابن كثير: ((إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء ، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة ، من اقتداء الناس به ، فيكون أفضل من هذه الحيثية))[١٢٣] ولفظ (الحيثية) عند ابن كثير وإن كان بمعنى الجهة فإنه لا

يعدم معنى التعليل، فمعنى النص السابق: إذا كان في إظهار الصدقة منفعة فهي أفضل لهذا السبب، أي إظهار الصدقة لمنفعة أفضل حيث (كي) تتحقق المنفعة.

ونختم شواهد استعمال (حيث) للتعليل قديمًا بالألوسي (١٢٧٠هـ) ففي الجزء الأول من تفسيره استعمل (حيث) ثلاثمائة وخمس وأربعين مرة، تفيد فيها (حيث) التعليل في مائة وست وأربعين مرة، بنسبة (٤٢%)[١٢٤] منها قوله:

- ((فهذه الأوجه الأربعة هي الظاهرة في وجه إعجاز القرآن والمشهور عند الجمهور الاقتصار على بلاغته وفصاحته حيث بلغت الرتبة العليا والغاية القصوى التي لم تكد تخفى على أهل هذا الشأن))[١٢٥]
- ((في هذا الوجه كناية تلويحية حيث عبر عن الدوام بالإقامة))[١٢٦]
- ((وفي الإتيان بالجمع تشنيع عليهم حيث جعلوا أَنْداداً لمن يستحيل أن يكون له ند واحد))[١٢٧]

واستعمل الألوسي لفظ (حيثية) مفردًا ثماني مرات، ومثنى مرتين، وجمعًا مرتين[١٢٨]، ويستعملها معنى جهة ، وإن كان يقترب من معنى التعليل في قوله: ((أو يقال الإيمان به عليه الصلاة والسلام راجع إلى الإيمان برسالته مثلا إذ لا معنى للإيمان به نفسه معرى عن الحيثيات))[١٢٩] وقوله: ((والتخصيص هنا بعد التعميم للإشارة إلى الأفضلية من حيثية أنهم يعطون أجرهم مرتين))[١٣٠] .

ومن قراءة النصوص التراثية السابقة ندرك أن استعمال (حيث) للتعليل قديم؛ نجده من العصر النبوي، ويشيع عند الراغب الصفهاني في القرن الرابع الهجري، ويزاحم المعنى الأصلي (الظرفية) عند الزمخشري في القرن السادس الهجري، ونجد في القرن الثامن الهجري استعمال لفظ (حيثية، حيثيات) الذي شاع في العصر الحديث بمعنى السبب.

٥- تجاهل المجاز وإنكار تبعاته:

على الرغم من الاستعمال القديم لـ (حيث) التعليلية إلا أن الدراسات اللغوية التراثية خلت من وصف هذا الاستعمال، مع أنها تحدثت كثيرًا عن أصل (حيث) اللغوي واستعمالها الظرفي، فلا نجد وصفًا لأداء (حيث) معنى آخر غير الظرفية، إلا أن أول معجم وصف هذا الاستعمال هو معجم الكليات لأبي البقاء الكفوي (١٠٩٤هـ) وهو وصف متأخر عن الاستعمال بقرون، فيقول أبو البقاء عن (حيث): ((وَقد يُرَاد بهَا التَّعْلِيل مثل: (النَّار من حَيْثُ إِنَّهَا حارة تسخن المَاء) أَي: حرارة النَّار عِلّة تَسخنه))[١٣١]

فهذا الوصف في القرن الحادي العشر يفيد استعمال (حيث) للتعليل، وقد يكون تأخر وصف استعمال (حيث) للتعليل راجع إلى رفض هذا المعنى المجازي في استعمال (حيث) وليست هذه الفرضية مستبعدة؛ فقد جاء التصريح برفضها في العصر الحديث؛ فلقد جعل د. محمد تقي الدين الهلالي استعمال (حيث) للتعليل من الأخطاء الشائعة، فيقول: ((يُقال مثلًا: لم ينجح فلان في الامتحان حيث لم يكن مواظبًا على حضور الدروس، والصحيح أن يُقال: لأنه لم يكن مواظبًا، وبيان ذلك أن (حيث) ظرف مكان))[١٣٢] وفي هامش كتاب الفروق اللغوية الحاوي لجزء من كتاب نور الدين الجزائري (١١١٢هـ) ففي الهامش يُعلِّق الشيخ بيت الله بيات على استعمال (حيث) التعليلية بقوله: ((هذا استخدام لـ (حيث) فيه معنى التعليل، وهو مُوَلَّد غير فصيح))[١٣٣] وعدم إقرار الاستعمال المجازي هو ما حدث في تعامل المفسرين مع قوله تعالى: ((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) إذ تأخر الإقرار بمجازية الاستعمال وحال ذلك دون البحث عن الدافع البلاغي.

ويلاحظ في وصف أبي البقاء الكفوي لاستعمال (حيث) للتعليل أمران، أولهما اقتران الوصف بالتقليل من حجم هذا الاستعمال بقوله (وقد) ، والملاحظة الأخرى أنَّ المثال الذي يذكره أبو البقاء لإفادة التعليل جاء بتركيب (من حيث إن) وهذا التركيب تحديدًا هو الذي وجدنا استعماله للتعليل بكثرة عند الراغب الأصفهاني (٤٠٢هـ) وقد بدا لي فيه التدرّج في الوصول إلى المجاز عن طريق التوسع اللفظي في استعمال (من حيث) بمعنى الجهة الحسية المكانية، وذلك باستعمالها بمعنى الجهة المعنوية، ثم باستعمالها بمعنى التعليل؛ لأن الجهة تفيد التعليل مجازًا، فتقول: تعجبني الرواية من جهة وصفها المفصّل، أي بسبب ذلك.

وهذه الملاحظة الثانية التي تربط بين تركيب (من حيث إن) واستعمال (حيث) للتعليل؛ توصلنا إلى مقولة ابن هشام الأنصاري الذي يؤكد فيها شيوع تركيب (حيث إن) وحدوث اللحن فيه ورفضه لهذا اللحن؛ إذ يقول: ((وقد أولِع الفقهاء وغيرهم بفتح (إن) بعد (حيث) وهو لحن فاحش))[١٣٤] وهذا النص – في رأيي – له قيمته البالغة؛ لأنه كاشف عن مرحلة من عمر استعمال (حيث) وهي استعمالها مع (أن) بفتح الهمزة وهو استعمال شائع وقتها، ولنترك الآن موافقته أو مخالفته لقواعد اللغة ولنلتفت إلى فرضية أوصلنا ابن هشام إليها، هذه الفرضية هي تزامن شيوع استعمال (حيث) للتعليل مع شيوع تركيب (حيث أن) بفتح الهمزة ، وقد تفسرُ هذه الفرضيةُ الدافعَ وراء فتح همزة (إن) بعد (حيث) بدلا من كسرها، فإنّ كسر همزة (إنّ) يكون في ابتداء الجملة،

فهي علامة لجملة جديدة مستأنفة ، أما فتح همزة (إنّ) فيكون في وسط الجملة ولذلك يكون بعد ألفاظ التعليل؛ فما بعد التعليل مفسِّرٌ لما قبله ، مثل: أحبك لأنك/ بسبب أنك/ من أجل أنك، فوجود هذا التركيب (حيث أن) يرتبط باستعمال (حيث) للتعليل إما أن يكون ذلك لمجرد تزامنهما، أو يكون ارتباطهما لتبعية التركيب (حيث أن) لدلالة التعليل الجديدة في استعمال (حيث) ، ولكن اللافت للنظر أن عدم الاعتراف باستعمال (حيث) للتعليل، وتجاهل وصف هذا الاستعمال بالمجاز أو التوسع، جاء مع رفض ابن هشام (وجمهور النحاة) لتركيب (حيث أن) فإذا ما كان تركيب (حيث أن) نتاج استعمال (حيث) للتعليل؛ فإنّ رفض التركيب رفضٌ لصياغة تابعة للمجاز ، وهو رفضٌ منطقي في ظل تجاهل المجاز.

النهاية : القَوْد النحوي والتحرير البلاغي

أولًا : الحكم والعلة :

حدث الرفضُ النحوي لتبعات المجاز برفضه تركيب (حيث أنّ) الذي شاع استعماله بدلالة التعليل بدلًا من (حيث) الظرفية؛ لنجد الصراع بين القاعدة النحوية والاستعمال المجازي، ويقودنا هذا الصراع لتناقض في التقعيد النحوي سببه تجاهلُ جانبٍ من الاستعمال، ولابد من تحديد مواطن هذا التناقض في القاعدة النحوية لأنّ هذا التناقض سيُظهر صحة الأسلوب المجازي وقوته على القاعدة المضطربة ، فلا بدّ من الانغماس قليلًا في الفكر النحوي كي لايُردُّ أسلوبٌ بليغ وتركيب فصيح بحكم نحويٍّ دون فهم دوافعه وجزئياته، فلقد وضع علماء النحو مجموعة من القواعد التي تصف استعمال (حيث) وتتلخص هذه القواعد فيما يلي :

١. (حيث) ظرف مبهم يحتاج إلى الإضافة لما بعده .
٢. تضاف (حيث) إلى الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية ، ومَثّل النحاة لذلك بقولهم : اجلس حيث يجلس زيد ، اجلس حيث زيدٌ جالسٌ .
٣. إذا جاء الاسم مفردًا بعد (حيث) يجب نصبه أو رفعه ليكون جزءًا من جملة مقدره ، مِثل: اجلس حيث زيدًا، على تقدير : اجلس حيث تجد زيدًا ، أو مِثل : اجلس حيث زيدٌ، على تقدير : اجلس حيث زيدٌ جالس ، فلا يجوز أن تضاف (حيث) إلى الاسم المفرد عند جمهور النحاة ، وإنما تُقدّر جملةً يكون فيها الاسم المفرد منصوبًا أو مرفوعًا.
٤. لا يجوز أن تضاف (حيث) إلى الاسم المفرد ، فلا يأتي بعدها الاسم المفرد مجرورًا ، إلا عند الكسائي الذي أجاز إضافة (حيث) إلى الاسم المفرد قياسًا على وروده في الشعر، فتقول : اجلس حيث زيدٍ ، ورفض جمهور النحاة القياس عليه ، ففي رأيهم لا يأتي بعد (حيث) الاسم المفرد مجرورًا منعًا من إضافتها إلى الاسم المفرد.
٥. وجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) فتقول : اجلس حيث إنّ زيدًا جالس ، ولا يجوز فتح همزة (إن) بعد (حيث) لأنّ فتح همزة (إن) يجعل (أن) وما بعدها مصدرًا مؤولاً ، وذهب النحاة إلى أن هذا المصدر المؤول (أن وما بعدها) في محل جر بالإضافة ، فكأنه جاء في المعنى باسم مفرد مجرور بعد (حيث) ولا يجوز عند جمهور النحاة

إضافة (حيث) للاسم المفرد ، فلا يجوز عند النحاة أن تقول : اجلس حيث أنّ زيدًا جالس ، لأنّ تقدير هذه الجملة : اجلس حيث جلوسِ زيدٍ ، ولا يجوز إضافة (حيث) للاسم المفرد (جلوس) عند جمهور النحاة ، وهذا هو السبب في منع النحاة فتح همزة (إن) بعد (حيث) .

هذا ما نجده في كتب النحو ، فمثلاً يقول ابن هشام الأنصاري : ((وتلزم (حيث) الإضافة إلى جملة اسمية كانت أو فعلية ، وإضافتها إلى الفعلية أكثر ، ومن ثم رُجِّح النصب في نحو جلست حيث زيدًا أراه ، وندرت إضافتها إلى المفرد كقوله : بيض المواضي حيث ليِّ العمائم ، أنشده ابن مالك ، والكسائي يقيسه ويمكن أن يُخرَّج عليه قول الفقهاء: من حيث أن كذا))[١٣٥] فابن هشام يربط بين حكم دخول (حيث) على (أن) مفتوحة الهمزة وإضافة (حيث) إلى الاسم المفرد ، فلأنه لا يجوز إضافة (حيث) إلى الاسم المفرد ــ إلا عند الكسائي ــ لا يجوز فتح همزة (إن) بعد (حيث) واستنادًا على رأي الكسائي في جواز الإضافة للاسم المفرد أجاز د. عباس حسن[١٣٦] فتح همزة (إن) بعد (حيث) لجواز الإضافة إلى المصدر المؤول من (أن) وما بعدها.

ويوضّح ابن هشام تعليله لهذا الحكم الذي يوجب كسر همزة (إن) في نص آخر ، فيقول في حديثه عن مواضع وجوب كسر همزة (إن) : ((تقع في أول الجملة المضاف إليها ما يختص بالجمل ، وهو (إذ) و(إذا) و(حيث) نحو: جلست حيث إنّ زيدًا جالسٌ ، وقد أولع الفقهاء وغيرهم بفتح (إن) بعد (حيث) وهو لحن فاحش فإنها لا تضاف إلا إلى الجملة ، و(أن) المفتوحة ومعمولاها في تأويل المفرد))[١٣٧] وهذا النص يوضّح عدة أمور :

- حكم كسر همزة (إن) بعد (حيث) .
- العلة في منع فتح همزة (إن) بعد (حيث) .
- فتح همزة (إن) بعد (حيث) لحن فاحش .
- انتشار هذا اللحن عند الفقهاء وغيرهم .

وبذلك استقر عند ابن هشام الأنصاري أشهر نحاة القرن الثامن الهجري هذا الحكم النحوي ، وهو : وجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) وامتناع فتحها ، محدِّدًا علة الحكم وهي : فتح همزة (إن) يجعل (أن) وما بعدها في تأويل مصدر ، وهذا المصدر المؤول

الموجود في المعنى كالاسم المفرد أي الكلمة الواحدة ، ولا يجوز إضافة (حيث) للاسم المفرد ، وإنما تضاف للجملة .

والقضية ليست قضية اختلاف في الرأي بين مذهبين ، أحدهما أوجب كسر همزة (إن) بعد (حيث) والآخر أجاز فتحها، وإنما سنجد تصدّعًا في البناء الفكري الذي لا يضبط العلة ليستقيم له الحكم ، ويخطئ في استقراء الدلالة التي يتغير بتغيرها الحكم ، وهو ما جعله يجمع بين المتناقضين في الحكم الواحد .

ثانيًا : تقويض الحكم من أقوال النحاة :

١ - التعارض بين الإضافة والابتدائية :

ذكر النحاة حكمهم بوجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) مع بيان أن كسر همزة (إن) يفيد ابتداء الجملة ، فيجب كسر همزة (إن) في بداية الكلام ، ويجب فتحها في وسط الكلام ، ومعنى ذلك أن الجملة بعد (حيث) إذا دخلت عليها (إن) بكسر الهمزة تكون جملةً ابتدائية ، وهو ما يناقض معنى الإضافة ، فلفظ (حيث) عند النحاة ظرف مبهم يجب إضافته ، والمضاف والمضاف إليه (المتضايفان) كالكلمة الواحدة في المعنى ، يقول السهيلي : ((المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد))[١٣٨] والمضاف كالجزء الذي لا يكون إلا بالمضاف إليه ولا ينفصل عنه، ولذلك لا يقبل المضاف التنوين ، والمضاف إليه بمنزلة الكل المالك للمضاف ، فيكف تكون (حيث) متصلة بالجملة التي بعدها عن طريق الإضافة ، ويصح دخول (إن) الدالة على بداية الجملة وانفصالها عن (حيث) ؟! خاصةً وأنّ (حيث) ظرف فالجملة التي بعده هي المحتوى الظرفي، أي وصف المكان أو الزمان ، فمعنى (اجلس حيث تجد الظلّ) : اجلس مكان وجود الظلّ ، وهذا المحتوى الظرفي (الوصف الظرفي) لا يتوافق مع التأكيد بـ (إنّ) ولذلك جعلوا (إنّ) في بداية جملة جديدة تنفصل عن سابقتها ، لأن ابتداء الكلام يقبل التأكيد ، بينما لا تقبل التأكيدَ جملةُ غرضها وصف ظرف مبهم .

هذا التناقض دوّنه النحاة بأنفسهم دون أن يلفت ذلك انتباههم ، فأوجبوا إضافة (حيث) إلى الجملة التي بعدها كما يقول ابن هشام : ((وتلزم (حيث) الإضافة إلى جملة))[١٣٩] والإضافة تفيد اتصال المضاف بالمضاف إليه ، فيعرّف ابن هشام الإضافة بقوله : ((إسناد اسم إلى غيره ، على تنزيل الثاني من الأول منزلة تنوينه ، أو ما يقوم مقام تنوينه))[١٤٠] و(حيث) مبهمة تحتاج إلى الإضافة ، فهي متصلة بالجملة التي بعدها ، أما دخول (إن) على

هذه الجملة بعد (حيث) يناقض اتصال المضاف بالمضاف إليه ، لأن كسر همزة (إن) يدل على بداية الجملة ، يقول ابن هشام : ((تكسر (إن) في الابتداء))[١٤١] فهناك تناقض بين دلالة الاتصال المأخوذة من إضافة (حيث) إلى الجملة التي بعدها ودلالة انفصال الجملة عن (حيث) بدخول (إن) بكسر الهمزة لأنها تفيد ابتداء الجملة .

فمن الغريب أن النحاة بعدما ذكروا أن دلالة (إن) مكسورة الهمزة هي ابتداء الكلام ؛ جعلوا من مواضع وجوب كسر همزة (إن) الجملة الاسمية بعد (حيث) فنجد ابن عقيل (٧٦٩هـ وهو معاصر لابن هشام ٧٦١هـ) في شرحه لألفية ابن مالك (٦٧٢هـ) يُصدّر هذا الموضع من عنده مع أن ابن مالك لم يذكره ، فيقول ابن عقيل بعدما شرح ستة مواضع ذكرها ابن مالك لوجوب كسر همزة (إن) : ((هذا ما ذكره المصنف وأُورد عليه أنه نقص مواضع يجب كسر (إن) فيها ، الأول: إذا وقعت بعد (ألا) الاستفتاحية نحو: ألا إن زيدا قائم، ومنه قوله تعالى "ألا إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ" (البقرة:١٣) الثاني: إن وقعت بعد (حيث) نحو: اجلس حيث إن زيدًا جالسٌ، الثالث: إذا وقعت في جملة هي خبر عن اسم عين نحو: زيد إنه قائم ، ولا يرد عليه شيء من هذه المواضع لدخولها تحت قوله : "فاكسر في الابتدا" لأنّ هذه إنما كسرت لكونها أول جملة مبتدأ بها))[١٤٢] فابن مالك لم يذكر وجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) وهذا مما يثير الشك في حكم تركيب (حيث إنّ) واستدرك ابن عقيل هذا الموضع ؛ معلّلاً عدم ذكر ابن مالك له بأن حكم كسر همزة (إن) بعد (حيث) داخل تحت القاعدة التي ذكرها ابن مالك (اكسر همزة (إن) في الابتدا) وبذلك علّل ابن عقيل لوجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) بأن الجملة المضاف إليها بعد (حيث) في ابتداء الكلام ، وإن قلنا بابتداء الكلام بعد (حيث) على أن ما بعد (حيث) منفصل عن الكلام الذي قبلها ؛ فلا يمكن قبول الفصل بين المضاف الظرف وجملة المضاف إليه بما يجعلها جملة ابتدائية مؤكّدة ، فالجملة بعد (حيث) الظرفية تفيد محتوى الظرف والحدث الكائن فيه بما لا يقبل الفصل بينها وبين المضاف (حيث) ولا تقبل هذه الجملة التأكيد بـ (إن) ولذلك لا أجد مثال النحاة (اجلس حيث إنّ زيدًا جالسٌ) متسقًا مع منطق اللغة وسلاسة النطق.

٢ - التعارض بين إضافة الظرف إلى الجملة وتأكيدها بحرف (إنّ) لأنّه تعارض بين الإضافة إلى الدلالة الفعلية وتغليب الدلالة الاسمية :

لقد تعامل النحاة مع (حيث) على أنها ظرف مضاف إلى جملة ، فيقول ابن هشام عن (حيث) : ((وهي للمكان اتفاقًا ، قال الأخفش وقد ترد للزمان ، والغالب كونها في محل نصب

على الظرفية أو خفض بمن وقد تخفض بغيرها))[١٤٣] وانتبه النحاة إلى احتياجها إلى الجملة الفعلية أكثر من الاسمية ، كما يقول ابن هشام: ((وإضافتها إلى الفعلية أكثر ، ومن ثم رُجّح النصب في نحو جلست حيث زيدًا أراه))[١٤٤] وفي جميع مواضع (حيث) في القرآن الكريم بعدها جملة فعلية، وكذلك نجد مثال النحاة في إضافة (حيث) إلى الجملة الاسمية (اجلس حيث زيد جالس) يفيد المعنى الفعلي من اسم الفاعل (جالس) الذي يدل على الحال والاستقبال كالمضارع، فالمعنى : اجلس حيث يجلس زيدًا ، لكن لم يستدلوا من احتياج (حيث) إلى الإضافة إلى الجملة الفعلية على احتياجها إلى الإضافة إلى المعنى الفعلي (الحدث) وهذا ما لاحظه السهيلي في ظروف الزمان ، فقال : ((ظروف الزمان إنما تذكر من أجل الأحداث الواقعة فيها ، فتضاف إليها إذ هي أوقات لها))[١٤٥] وهذا ما نلاحظه في كل الظروف المضافة إلى الجمل ، فالظرف المضاف إلى الجملة إمّا أن يضاف إلى الجملة الفعلية أو إلى جملة اسمية خبرها يفيد المعنى الفعلي ، فمن أمثلة النحاة : "جئتك إذ قام زيد، جئتك إذ زيد قائم " ولا يستقيم إضافة الظرف إلى جملة اسمية لا تدل على المعنى الفعلي (الحدث) فلا يمكن أن نقول : اجلس حيث محمد طويل، جئتك إذ زيد إنسان ، فلا بد من وجود معنى فعلي (حدث) في الجملة التي يضاف إليها الظرف، والمعنى الفعلي لا يقبل التأكيد بحرف (إنّ) مباشرةً ، فلا تدخل (إنّ) على الجملة الفعلية ، وتدخل على الجملة الاسمية (إنّ زيدًا طويلٌ)، ودخول (إنّ) على الجملة الاسمية التي يفيد خبرها المعنى الفعلي مستساغ لأن أثرها يقع على الاسم (المبتدأ) ، ولم يعارض تأكيد (إنّ) لاسمية الجملة أداة تظهر المعنى الفعلي وتحتاجه، فتقول في ابتداء الكلام : إنّ العقلَ يتأمل ، أمّا تأكيد الجملة الاسمية بحرف (إنّ) بعد الظرف المضاف إليها يجد تعارضًا بين احتياج الظرف إلى الدلالة الفعلية واختصاص (إنّ) بالجملة الاسمية ، فمثلاً ظرف الزمان (يوم) يضاف إلى الجملة الفعلية ، يقول تعالى : ((وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)) (الأنعام:١٢٨) ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا)) (آل عمران:٣٠) ((وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ)) (مريم : ٣٣) ولا يمكن إضافته إلى الجملة الاسمية، ولا يستساغ أن نقول : زرتك يوم إنّ محمدًا قائمٌ ، والسبب في ذلك هو وجود التعارض بين الدلالة الفعلية التي تظهر من إضافة الظرف للجملة والدلالة الاسمية التي تظهر من تأكيد الجملة المضاف إليها الظرف ، فقد اجتمع متنافران في مكان واحد .

ولعله هنا يثار أمر ، هو كيف تكون إضافة الظرف إلى الحدث (المعنى الفعلي) مع إمكانية إضافته للمفرد ، فنجد تركيب : يوم القيامة ، يوم الخروج ؟ إنّ هذا الأمر في تصوري لم يخرج عن الإضافة إلى الحدث أيضًا ، فالمعنى الفعلي موجود في هذه الأسماء المفردة ،

وكذلك الأمر مع ظرف المكان (حيث) فهي تحتاج إلى حدث فعلي بعدها (فعل أو اسم يدل على الفعل) لأنها تربط ما بعدها بما قبلها؛ والربط يفيد وقوعًا زمنيًا ترتيبيًا حدث فيه هذا الربط، لذا تحتاج للحدث الفعلي لأن الحدث الفعلي زمن، فما قبلها تأخر حدوثًا عن ما بعدها.

وكي لا نخرج عن الثوابت الظاهرة في قضية وجوب كسر همزة (إنّ) بعد (حيث) يظهر أن النحاة أنفسهم ألمحوا إلى أن إضافة (حيث) تكون للحدث (المعنى الفعلي) إمّا بأفضلية إضافتها إلى الجملة الفعلية أو من أمثلة النحاة التي تدل فيها الجملة المضاف إليها على المعنى الفعلي ، ومن ذلك يمكن ملاحظة التعارض بين الإضافة إلى الدلالة الفعلية وتغليب الدلالة الاسمية بدخول (إنّ) على الجملة المضاف إليها .

وإن كان إجمالاً لا يُفضَّل الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، وهو ما يمنع من دخول (إنّ) بين المضاف (حيث) والجملة المضاف إليها ، فإني أستشهد بقياس (إنّ) على (ما) التي يصفها أبو البقاء محب الدين بأنها تقطع إضافة (حيث) فيقول : ((وأما (حيث) فلا تجزم إلا إذا كانت معها (ما) لوجهين: أحدهما أن (حيث) تلزم إضافتها إلى الجمل ، والمضاف يعمل الجر ، وهو من خصائص الأسماء فلا يعمل الجزم المختص بالأفعال . والثاني أن (حيث) تقع بعدها الأسماء والأفعال فلم تختص فأدخلت عليها (ما) لتقطعها عن الإضافة فتهيئ لها العمل في الفعل بخلاف (أين) و(متى) فإنهما يجزمان من غير (ما) لأنهما لا يضافان))[١٤٦] فكما أن (ما) تقطع إضافة (حيث) فإن حرف التأكيد (إن) الذي يدخل على الجملة الابتدائية من شأنه أن يؤثر على هذه الإضافة .

ثالثًا : إمكانية دخول (حيث) الظرفية على (أن) بفتح الهمزة في أصول النحو :

وإذا كانت (إن) بكسر الهمزة تدل على ابتداء الجملة والتأكيد الاسمي وهو ما يناقض اتصال هذه الجملة بالمضاف (حيث) الظرفية عن طريق الإضافة ؛ فإننا نجد النحاة أنفسهم الذين منعوا دخول (حيث) الظرفية على (أن) مفتوحة الهمزة يثبتون بأقوالهم أن دخول (حيث) على (أن) مفتوحة الهمزة أفضل من دخولها على (إن) مكسورة الهمزة ، لموافقة دخول (حيث) على (أن) أصول قواعد النحو ، وذلك للأسباب الآتية :

١ - ذكر النحاة أنّ دلالة (أن) بفتح الهمزة هي التوسط في الكلام ، فتقدّر (أن) وما بعدها بمصدرٍ مؤولٍ يقع فاعلاً أو مفعولاً به أو مجرورًا بما قبله ، يقول ابن عقيل عن همزة (أن) : ((فيجب فتحها إذا قُدرت بمصدر كما إذا وقعت في موضع مرفوع فعل نحو : يعجبني أنك قائم أي قيامُك ، أو منصوبة نحو : عرفت أنك قائم أي قيامَك ، أو في موضع مجرور حرف نحو :

عجبت من أنك قائم أي من قيامِك))[١٤٧] فتربط (أن) مفتوحة الهمزة ما بعدها بما قبلها ، وعليه لا يناقض وجود (أنّ) بفتح الهمزة اتصال المضاف بالمضاف إليه ، لأنّ حرف (أنّ) وما بعدها في تأويل مصدر ، فهو كالكلمة الواحدة (الاسم المفرد) كما قال النحاة ، وبذلك لا يناقض اتصال الإضافة لأنها ستكون بين كلمة وكلمة في التأويل ، فعندما نقول : اجلس حيث أن زيدًا قائم ، تكون (أن) وما بعدها في تأويل مصدر فالمعنى : اجلس حيث جلوس زيدٍ ، وبذلك تكون (حيث) مضافة للمصدر المؤول ، فالإضافة متحققة غير مقطوعة ، وهذا ما ذكره النحاة ، وهذا أيضًا سبب منعهم دخول (حيث) على (أن) مفتوحة الهمزة ، لأن جمهور النحاة يمنع إضافة (حيث) للكلمة المفردة ويلزم إضافتها للجملة على الرغم من صحة اتصال الإضافة وعدم وجود ما يقطعها .

وأن تكون (حيث) لازمة الإضافة يجعلها عاملة بالإضافة فيما يليها ، وعملُ (حيث) يوجب فتح همزة (إن) بعدها ، يقول السهيلي : ((وحكم (إن) إذا دخل عليها العامل أن تفتح الهمزة منها ، فصار اللفظ : كأنّ زيدًا الأسد))[١٤٨] فقد أوجب النحاة فتح همزة (إن) إذا دخل عليها العامل اللفظي ، ومما يلفت الانتباه أن هذا العالم المفكر (السهيلي ٥٨١هـ) في كتابه (نتائج الفكر) لم يقل بوجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) تلك القاعدة التي نص عليها ابن هشام وغيره، فالسهيلي مثل ابن مالك في عدم ذكر هذه القاعدة ، وهذه الملاحظة التأريخية لها دلالتها في استحداث الحكم القائل بوجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث)، ومع أن السهيلي لم يتحدث عن حكم دخول (حيث) على (إن) إلاّ أنه أصّل لفتح همزة (إن) بعد (حيث) في حديثه المتأمل عن الفرق بين (إن) و (أن) فيقول : ((فإن كُسرت همزتها كان الكسر فيها إشعارًا بتجريد المعنى الذي هو التأكيد عن توطئة الجملة للعمل في معناها ، فليس بين المكسورة والمفتوحة فرق في المعنى إلا أنهم إذا أرادوا توطئة الجملة لأن يعمل الفعل الذي قبلها في معناها وأن يصيروها في معنى الحديث؛ فتحوا الهمزة، وإذا أرادوا قطع الجملة مما قبلها وأن يعتمدوا على التوكيد اعتمادهم على الترجي والتمني؛ كسروا الهمزة ليؤذنوا بالابتداء والانقطاع عما قبل ، وأنهم قد جعلوا التوكيد صدر الكلام لأنه معنى كسائر المعاني ، وإن لم يكن في الفائدة مثل غيره ، وكان الكسر بهذا الموطن أولى لأنّه أثقل من الفعل ، والثقل أولى ما يعتمد عليه ويصدر الكلام به ، والفتح أولى بما جاء بعد الكلام لخفته))[١٤٩] فما قاله السهيلي تأصيل يقتضي عدم دخول (حيث) على (إن) مكسورة الهمزة خلافًا لما أشاعه النحاة من بعده ، كما يفيد كلام السهيلي فتح همزة (إن) بعد (حيث) في منطق أصول النحو لتوسط (أن) مفتوحة الهمزة واتصالها بالعامل اللفظي .

٢- دخول (حيث) على (أنّ) بفتح الهمزة لا يناقض وجوب إضافة (حيث) إلى الحدث (المعنى الفعلي) لأنّ (أنّ) تؤول مع ما بعدها بمصدر ، والمصدر يدل على الحدث الفعلي ، ويعمل عمل الفعل بشروط ، فعندما تقول : اجلس حيث أنّ زيدًا جالسٌ ، يؤوّل إلى : اجلس حيث جلوس زيدٍ، وهذا ما منعه جمهور النحاة لأنه في التأويل إضافةٌ إلى المفرد ، مع أن هذا المفرد (المصدر المؤول) الذي جاء من (أن) مفتوحة الهمزة يناسب دخول (حيث) عليه لأن المصدر يدل على المعنى الفعلي الذي تحتاج (حيث) الإضافة إليه .

ويمكننا ملاحظة دلالة (أن) مفتوحة الهمزة على المعنى الفعلي إذا بحثنا عن السبب في صحة هذه التراكيب الآتية أو الفرق بينها :

- ✓ عرفتُ أن زيدًا جالسٌ
- ✓ عرفتُ زيدًا جالسًا
- ✓ عرفتُ إن زيدًا جالسٌ

فالتركيب الأول يفيد حصول المعرفة لحدث فعلي ، فيتسلط الفعل (عرفت) على معنى الجملة كاملة (زيدًا جالس) بحدثها الفعلي لأن المعنى (عرفتُ جلوسَ زيدٍ) أما في التركيب الثاني نجد أن الفعل (عرفت) يتسلط على مفردات الجملة ، فيكون المعنى معرفة زيدٍ بوصفه جالسًا دون إفادة حدوث هذا الجلوس في زمن ، ودون إفادة حصول المعرفة لحدث الجلوس في المقام الأول ، فتركيب (عرفتُ أن زيدًا جالسٌ) الذي جاءت فيه (أن) مفتوحة الهمزة يفيد حصول المعرفة بحدث الجلوس ، وأما تركيب (عرفتُ زيدًا جالسًا) يفيد حصول المعرفة بزيدٍ بوصفه الثابت فيه ، وبذلك يفيد دخول (أن) مفتوحة الهمزة تسلط ما قبلها على المعنى الفعلي ، أما التركيب الثالث (عرفتُ إن زيدًا جالسٌ) فنلحظ هذا الخلل في صحته لأن هناك تعارضًا بين احتياج الفعل (عرفت) لما هو حاصل ودلالة (إن) مكسورة الهمزة على تأكيد الجملة الاسمية وابتدائها وثبوتها .

فإذا قسنا ذلك على تركيب (حيث) التي يكثر (يُفَضَّل) دخولها على الجملة الفعلية لاحتياجها للمعنى الفعلي ، ندرك أن دخول (حيث) على (أن) مفتوحة الهمزة في مثل (اجلس حيث أن زيدًا جالس) أفضل من دخول (حيث) على (إن) مكسورة الهمزة لأن (أن) مفتوحة الهمزة أظهرت المعنى الفعلي (الجلوس) الذي تحتاج (حيث) الإضافة إليه ، بينما يستقيم دخول (حيث) على الجملة الاسمية مباشرة دون تأكيد فتقول : (اجلس حيث زيدٌ جالسٌ) لأن وقوع لفظ (زيد) مبتدأ مرفوع منع من تسلط (حيث) عليه وظلت إضافتها إلى الجملة التي تفيد المعنى

الفعلي أي إلى (الجلوس) أي أننا لا بد أن ندرك أن (حيث) الظرفية تحتاج إلى المعنى الفعلي ، ولذلك يُفضَّل دخولها على الجملة الفعلية ، وتقبل الدخول على (أن) مفتوحة الهمزة لظهور المعنى الفعلي من تأويل أن وما بعدها بمصدر ، وكذلك تدخل (حيث) على الجملة الاسمية مباشرة لظهور المعنى الفعلي لعدم تسلطها (انشغالها / إشباعها) بالمبتدأ الذي لا يفيد المعنى الفعلي ، بينما لا تقبل (حيث) الدخول على (إن) مكسورة الهمزة لأن (إن) تضعف المعنى الفعلي بتأكيدها للجملة ، كما تضعف تسلط (حيث) على الجملة لاستحقاقها الصدارة والابتداء .

٣- ذكر النحاة إمكانية مجيء اسم مفرد بعد (حيث) على تقدير وجوده في جملة منصوبًا أو مرفوعًا ، فتقول: اجلس حيث زيدًا ، على تقدير : اجلس حيث زيدًا تراه ، أو على تقدير أوضح: اجلس حيث ترى زيدًا ، فلماذا لا يقدر نصب الاسم المفرد (المصدر المؤول) أو رفعه في جملة مقدّرة ، فعندما نقول : اجلس حيث أن زيدًا جالس ، فـ (أن) وما بعدها تؤول بمصدر أي اسم مفرد ، وهذا الاسم المفرد مؤول ، أي أنه في المعنى فلن تظهر عليه علامة الجر بالإضافة ؛ ولذلك يمكن تقدير نصبه أو رفعه في جملة مقدرة ، فتكون جملة : اجلس حيث أنّ زيدًا جالسٌ ، على تقدير: اجلس حيث جلوسَ زيدٍ تراه ، أو : اجلس حيث جلوسُ زيدٍ موجودٌ .

٤ - أجاز الكسائي إضافة (حيث) الظرفية للاسم المفرد مثل : اجلس حيث زيدٍ ، وعلى رأيه لا توجد العلة التي بسببها منع النحاة دخول (حيث) على (أن) مفتوحة الهمزة .

لكن هنا لابد أن نفهم لماذا منع النحاة إضافة (حيث) للاسم المفرد ولماذا أجازة الكسائي، إذ أننا إذا تنبهنا إلى احتياج (حيث) الظرفية إلى المعنى الفعلي لأدركنا أن كلا الفريقين (جمهور النحاة و الكسائي) محقٌّ وكلاهما مخطئ ، لماذا ؟ لأنهما لم يُحَكّما احتياج (حيث) للمعنى الفعلي ، فعلى الرغم من أن النحاة انتبهوا إلى أفضلية إضافة (حيث) إلى الجملة الفعلية ، وعلى الرغم من أن الاستعمال القرآني البليغ اقتصر على إضافة (حيث) على الجملة الفعلية ؛ إلا أن النحاة لم يستنبطوا من ذلك ضرورة إضافة (حيث) إلى المعنى الفعلي ، ولو أنهم استنبطوا هذه القاعدة وحكَّموها لفصلوا القول في حكم إضافة (حيث) إلى الاسم المفرد ، لأنّ هذه القاعدة توضّح أنّه يجوز إضافة (حيث) إلى الاسم المفرد إذا دلّ على المعنى الفعلي التام (الفعل والفاعل) فمن المقبول أن نقول : اجلس حيث جلوسِ زيدٍ ، لأنّ المعنى هنا : اجلس حيث تجد جلوسَ زيدٍ أو حيث يجلسٌ زيدٌ ، <u>وعليه أيضًا لا يجوز إضافة (حيث) للاسم المفرد الذي لا يفيد المعنى الفعلي</u> ، فلا يجوز أن نقول : اجلس حيث زيدٍ ، اللهم إلا على تقديرٍ خاصٍ يفسره المقام ، فيكون المراد: اجلس حيث زيدٍ جالسٍ ، وفي ذلك لبس بين الاقتصار على الإضافة غير

الجائزة لاسم الذات (زيد) والإضافة لاسم الذات الموصوف بالمعنى الفعلي (جالس) ولذلك أصاب الكسائي في جواز إضافة (حيث) للاسم المفرد ، وأخطأ في إطلاق الإضافة دون تقييدها بالدلالة على المعنى الفعلي الذي تحتاجه (حيث) ولذا رفض جمهور النحاة هذا التركيب ، دون أن يتفهم كلاهما حقيقة احتياج (حيث) للمعنى الفعلي.

فلقد جاء حكم الكسائي بجواز إضافة (حيث) للاسم المفرد حكمًا مطلقًا ، أخذ به د. عباس حسن[١٥٠] ، ود. شوقي ضيف[١٥١] ، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة[١٥٢] ، وليكون هذا الحكم صحيحًا فإنه يحتاج إلى التقييد، فإضافة (حيث) إلى الاسم المفرد جائزة إذا كان دالًا على الحدث الفعلي ، وليس كما مثّل د. شوقي ضيف بقوله: ((ألقاك حيث الجامعةِ، أوحيث الأهرامِ))[١٥٣] فالمعنى هنا يحتاج إلى تقدير حدث فعلي لا يُقبل معها الإضافة للاسم الذات الذي لا يدلُّ على حدث بصيغته، وأيًّا ما كان الأمر فإن جواز إضافة (حيث) للاسم المفرد الدال على المعنى الفعلي يُبطِل علة منع النحاة دخول (حيث) على (أن) مفتوحة الهمزة ، فهي وما بعدها في تأويل مصدر ذُكر فاعله ، فتحققت الإضافة إلى المعنى الفعلي الذي تحتاجه (حيث) وليس إلى الاسم المفرد المجرد من المعنى الفعلي .

هذه الأسباب من شأنها أن تقوي إمكانية صحة دخول (حيث) الظرفية على (أنّ) مفتوحة الهمزة ، ومع ذلك فإن هناك مانعًا سيمنع من دخول (حيث) الظرفية على (أنّ) مفتوحة الهمزة، هذا المانع له علاقة بالاستعمال المجازي لـ (حيث) .

رابعًا : استبعاد دخول (حيث) الظرفية على (أن) بفتح الهمزة مع أنه أصحّ من كسرها :

الأصل استعمال (حيث) ظرفًا لكن انحرفت (حيث) إلى دلالة التعليل فمن الأمثلة التي جاءت فيها (حيث) ظرفًا : اجلس حيث يجلس زيد، ومن الأمثلة التي استعملت فيها حيث بدلالة التعليل : نجح محمد حيث ذاكر جيدًا ، فمن الممكن استبدال (حيث) بحرف التعليل (لأنه) ويستقيم معه معنى الجملة وبذلك نكون أمام دلالتين للفظ (حيث) هما : الظرفية والتعليل ، ويحدد سياقُ الجملةِ المرادَ من اللفظ ، فمعنى الجملة هو الذي يحدد المراد من (حيث) وهذا ما يسمى بالقرينة المعنوية ، فإذا ما توفرت مع القرينة المعنوية قرينة لفظية تؤكد المراد من اللفظ كان ذلك أكثر تحديدًا للمعنى ووضوحًا للمراد ، وتحديد القرينة اللفظية للدلالة من أصول علم النحو التي أظهرت الذكاء اللغوي في استعمال التراكيب وتحديد دلالتها ، فمثلاً يدل رفع الفعل المضارع بعد (إذن) على وقوعه في زمن الحال ، ويدل نصبه على زمن المستقبل ، فالقرينة اللفظية تحدد المعنى، وكذلك فإن تحديد القرينة اللفظية للمعنى المجازي من أصول علم البلاغة.

فـإذا مـا كانـت (حيـث) تقبـل الدلالـة علـى الظرفيـة والتعليـل فـإن القرينـة اللفظيـة تُـرجِّح إحـداهما، وأزعـم أن تركيـب (حيـث أن) بفـتح الهمـزة يُـرجِّح دلالـة (حيـث) علـى التعليـل ، لأن التعليل من مواضع (أن) بفتح الهمزة ، يقول د. عباس حسن في هذه المواضع: ((أن تقع فـى موضـع التعليل، نحو قوله تعالى : " إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ" (الطـور:٢٨) قُرئ بفتح الهمزة، على تقدير لام التعليل؛ أى: لأنّه هوالبر الرحيم، وقُرئ بكسر الهمزة علـى اعتبار: (إن) فى صدر جملة جديدة. ومثله قوله تعالى: " وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ" (التوبة:١٠٣) فالفتح على تقدير لام التعليل، أى: لأنَّ صلاتك سكن لهم، والكسر على اعتبار: (إنّ) فـى صـدر جملـة جديـدة))[١٥٤] وكذلك تُفتح همـزة (إن) فـي التراكيـب اللغويـة مـع أدوات التعليل، فحرف اللام يدخل على (أن) فتقول : أحبك لأنَّك مخلص في عملك ، وتـأتي (أن) بفتح الهمزة في وسط الكلام للربط بين طرفيّ الجملة فتقول: علمت أنَّ محمدًا سافر ، وهذا الربط يحمل معنى التفسير المتصل بالتعليل ، فقولك (علمتُ) حدثٌ بالعلم تسبب فيه وجود المعلوم به ، فلو لم يحدُث المعلوم به لما حدث علمك به ، ولذلك نجد هذه الجملة تقبل دخول (بأن) فيها فتقول: علمت بأن محمدًا مسافر ، علمت بأنك مسافر ، على غرار دخول (بأن) للتعليل في مثل: فرحت بأنك مجتهد ، فحرف الباء يفيد السببية مثل قول تعالى : ((بِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا)) (النساء:١٦٠) ومثلها دخول (مِن) على (أن) فتقول : أتعجب مِن أنّك غافل عن قدراتك، فتدخل أداة التعليل على (أن) بفتح الهمزة ، وعليه يكون دخول (حيث) التي تحتمل الظرفية وتحتمل التعليل على (أن) بفتح الهمزة ترجيحًا لدلالة التعليل لتكون هي المراد من (حيث) فقد تستعمل (حيث) في جملة لا تُحدد فيها القرينة المعنوية دلالة (حيث) فتحتمل الظرفية والتعليل ، فمثلاً تقول: أُلْهِمَ الشاعرُ حيث القمر ساهر ، فهنا (حيث) ظرف مكان أو زمان أو بمعنى (لأن) فتحتمل (حيث) الدلالة على الظرف أو التعليل ، فإذا دخلت (حيث) على (أن) بفتح الهمزة أجدها بقياس التراكيب النحوية تقوي دلالة التعليل، فتقول : أُلْهِمَ الشاعر حيث أن القمر ساهر ، يَرِقُ فؤادي حيث أن اليتيم حزين ، فالتعليل يرتبط بـ (أن) مفتوحة الهمزة كما يفيده تركيب (لأن) أما الظرف فيحتاج إلى الإضافة المباشرة للحدث الفعلي ، فإضافة (حيث) للجملة مباشَرةً تُوجِّه المعنى إلى دلالة الظرفية وتصرف عنه دلالة التعليل، وهذا يَتسِّق مع الاستعمال الأول لـ (حيث) وهو الاستعمال الأصلي لها (ظرفًا) قبل استعمالها للتعليل، فلم تأتِ (حيث) في استعمالها الأول مع (إن) أو (أن).

إن شواهد استعمال (حيث) ووصف النحاة لها يُؤكد أن استعمالها للظرفية أقدم من استعمالها للتعليل ، أي أن استعمال (حيث) للتعليل متأخر زمنًا ، وكذلك ظهر من قراءة استعمال

(حيث) أن تركيب (حيث أن) متأخر زمنًا عن استعمال (حيث) دون دخولها على (أن) أو (إن) وبذلك يتزامن شيوع دلالة التعليل مع شيوع تركيب (حيث أن) ويمكننا كذلك ملاحظة هذا التزامن لميلاد تركيبٍ محدّد الدلالة (له قرينة لفظية على الدلالة) من إنكار النحاة المتأخرين (نحاة القرن الثامن الهجري) صحة تركيب (حيث أن) ، فابن هشام - وهومن أشهر النحاة المتأخرين ــ صرّح أن تركيب (حيث أن) تركيب خاطئ انتشر عند الفقهاء ، وهنا أغفل ابن هشام ومَن تبعه أمرين :

الأمر الأول : أن (حيث) التي يتحدث عنها في تركيب (حيث أن) ليست هي (حيث) الظرفية التي تدخل على الجملة ، فابن هشام يرفض دخول (حيث) على (أن) بفتح الهمزة لأنها ظرف ، بينما نلاحظ أن استعمال (حيث) قد انحرف عن الدلالة الظرفية إلى دلالة التعليل، وأحسنَ ابن هشام عندما ألقى بتهمة الاستعمال الخاطئ (حيث أن) على الفقهاء ، لأنه بذلك دلّنا على استعمال آخر في بيئة أخرى غير بيئته النحوية ، فابن هشام يُخَطِّئ تركيب (حيث أن) نحويًّا ، ويحدد دلالته (الظرف) ويذكر لنا انتشاره عند الفقهاء ، فإذا نظرنا إلى استعمال (حيث) المنتشر وقتها نجده استعمالًا للفظ (حيث) بدلالتها على التعليل.

الأمر الثاني هو : صحة تمرير تركيب (حيث إن) بكسر الهمزة المخالف لاستعمال اللغة ومنطقها عوضًا عن تركيب (حيث أن) بفتح الهمزة ، ومكّنوا لهذا التركيب عند خلفهم ، فمثلًا د. عرفة حلمي يوجِب كسر همزة (إن) بعد (حيث) [١٥٥]، والسبب في ذلك : أن ابن هشام وغيره من النحاة عندما وجدوا انتشار دخول (حيث) على (أن) صُرفت أذهانهم إلى أن (حيث) ظرف يدخل على الجملة ، ولا تدخل على المفرد ، ولذا عارضوا بشدة دخول (حيث) على (أن) التي تؤوّل مع ما بعدها بمفرد ، وقدَّموا البديل وهو دخول (حيث) على (إن) بكسر الهمزة لأن هذا البديل لا يعارض بقاء الجملة بعد (حيث) فلا تؤوّل بمفرد ، لكن النحاة أغفلوا أن دخول (إن) بكسر الهمزة يعارض صدارة (إن) في أول الكلام ، ويعارض الإضافة بالفصل بين (حيث) والمضاف إليه ، وإن كان دخول (إن) لا يحيل الجملة إلى مصدر مؤوّل مفرد.

وبذلك قابل النحاة انتشار تركيب (حيث أن) بقوة الرفض التي أغفلت الدلالة الجديدة (التعليل) وبقوة فرض تركيب جديد خاطئٍ هو تركيب (حيث إن) إذ ما أُنزِل بهذا التركيب من سلطان في اللغة ؛ لا عقلاً بالقياس الصحيح، ولا نقلاً عن الاستعمال الفصيح .

خامسًا : تقديس الحكم النحوي على الرغم من سقوط العلة :

كان من الممكن اختزال الصراع بين القاعدة النحوية وفلسفة المجاز إلى خلاف في الرأي بين مذهبين يقول أحدهما بوجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) ويقول الآخر بجواز فتحها، لكن حقيقة الأمر أن الخطأ في الحكم نال كلا الرأيين، فرأي ابن هشام القائل بوجوب كسر همزة (إن) بعد (حيث) يناقض قانون الإضافة وقاعدة كسر الهمزة عند الابتداء، وهو رأي جاء لمعالجة تركيب (حيث أن) الذي رآه ابن هشام خطأً فاحشًا لابد من تصويبه بالبديل، أما الرأي القائل بجواز فتح همزة (إن) بعد (حيث) فهو رأي محمد محيي الدين عبد الحميد الذي قاله تعليقًا على رأي ابن هشام : ((ليس الأمر كما قال المؤلف ، بل هو جائز ، وله تخريج حسن، أما تخريجه : على قول من أجاز أن تضاف (حيث) إلى المفرد ... وأما الذين أوجبوا إضافة (حيث) إلى الجملة – وهم الجمهور- والمؤلِّف تابع لهم ، فعلى مذهبهم يكون المصدر المنسبك من (أن) وما بعدها مفردًا مرفوعًا على أنه مبتدأ وخبره محذوف))[١٥٦] فرأي محمد محيي الدين عبد الحميد بجواز فتح همزة (إن) بعد (حيث) تخريجًا وتقديرًا يُبقي على كسر همزة (إن) بعد (حيث) وإن كان جوازًا لا وجوبًا كما ذهب ابن هشام ، بل يبدو من كلامه أنه هو الأصل الذي لا يحتاج لتخريج ولا تقدير، وكذلك يرى د. عباس حسن ، إذ يقول في مواضع جواز فتح همزة (إن) : ((أن تقع بعد حيث الظرفية، نحو: "أزورك حيث إنّك مقيم فى بلدك" بفتح الهمزة وبكسرها، فالفتح على اعتبار الظرف (حيث) داخله على المفرد المضاف إليه وهو المصدر المؤول، والكسر على اعتبارها داخلة على المضاف إليه الجملة، وهذا هوالأفصح؛ إذ الأغلب فى (حيث) أن تضاف للجملة))[١٥٧] ويقول في موضع آخر عن جواز فتح همزة (إن) بعد (حيث) : ((و هذا رأي سديد، فيه تسمح وتيسير؛ إذ يجري اليوم على مقتضاه كثرة المثقفين، وإن كان الأولى و الأفضل محاكاة الأسلوب الأفصح و الأقوى))[١٥٨] ويظهر في هذا الرأي خطآن: الأول في تحديد عِلّة فتح همزة (إن) بعد (حيث) إذ جعل عِلَّة الفتح إضافة (حيث) إلى المصدر المؤول، والحقُّ أنها ليست عِلَّة الفتح وإنما نتيجة من نتائجه، فعِلَّة فتح الهمزة تحوُل (حيث) من الظرفية إلى التعليل، وقد أدَّى عدمُ تحديد العلة إلى الخطأ في الحكم، وهذا هو الخطأ الثاني، فلقد أسقطَ عِلَّةَ منع فتح الهمزة بجواز إضافة (حيث) للمفرد فأصبح الحكم جواز فتح همزة (إن) بعد (حيث) وليس وجوب فتح الهمزة، فلم يمنع الرأي الثاني كسر همزة (إن) بعد (حيث) التعليلية، لأنه لم يحدد دلالة الاستعمال المجازي (التعليل) التي توجب الفتح، كما أنه استقبل تركيب كسر الهمزة (حيث إن) دون أن يُدرك أنه عوض وتصويب -في رأي ابن هشام- لتركيب الاستعمال المجازي (حيث أن) ولذلك لم يلحظ أن هذا التركيب البديل (حيث إن) مجتثٌ عن القاعدة والأصل.

وبإمكاننا أن نلمس مدى تقديس القاعدة النحوية بعلتها وحكمها وتركيبها؛ إذ أن القاعدة النحوية التي قالها ابن هشام فضلًا عن أنها تجاهلت دلالة التعليل، كان سببها الردّ على الكسائي الذي أجاز إضافة (حيث) إلى المفرد، فدفع ذلك ابن هشام إلى رفض تركيب (حيث أن) لأنه في التقدير (التأويل) يساوي الإضافة إلى المفرد، ومع أن د. عباس حسن قبل رأي الكسائي وأسقط علة ابن هشام إلا أنه عاد وقدّس القاعدة التي توجب كسر همزة (إن) بعد (حيث) بجعله الكسر أفصح من الفتح، فلماذا قبِل مَن أسقط عِلّة ابن هشام تركيبَ ابن هشام (حيث إن) وجعله أفصح مِن الاستعمال الشائع الذي يستند على رأي الكسائي؟! فلقد كان مِن المنطقي أن مَن رفض دافع ابن هشام في إيجاد التركيب البديل (حيث إن) أن يسقط معه هذا التركيب، وهو أمر غريب، والأغرب منه أنه ليس كل مَن قبل إسقاط علّة ابن هشام ووافق الكسائي في رأيه بجواز إضافة (حيث) للاسم المفرد قال بجواز فتح همزة (إن) بعد (حيث) ، فمع أن د. شوقي ضيف ومجمع اللغة العربية بالقاهرة قالوا بجواز الإضافة إلى الاسم المفرد إلا أنهم لم يقولوا بجواز فتح همزة (إن) بعد (حيث)[١٥٩] ، وكذلك نجد د. عودة الذي تحدَّث عن دلالة (حيث) التعليلية في العصر الحديث لم يتحدث عن فتح همزة (إن) بعدها[١٦٠]، ومعنى ذلك أن من سبق ذكرهم لم يربطوا بين فتح همزة (إن) بعد (حيث) ودلالة التعليل المجازية من (حيث) ، على الرغم من أن التعليل من مواطن فتح همزة (إن) ، كما يدل عدم تصريحهم بجواز فتح همزة (إن) بعد (حيث) أنهم يتبعون رأي ابن هشام في منع فتح همزة (إن) بعد (حيث) مع أنهم أسقطوا عِلَّة منعه، فهو وقوع في أسر القاعدة النحوية الشائعة، كما فعل د. عباس حسن الذي صرّح بجواز فتح همزة (إن) بعد (حيث) لكنه فضَّل كسرها وأيده بالفصاحة، وكأنه أبقى على العلة والقاعدة.

إن من القواعد الأصولية الحكيمة في الفقه الإسلامي دوران الحكم مع العلة، وسقوط الحكم بسقوط العلة، وإذا طبقنا هذه القاعدة على تركيب (حيث أن) المقترن بدلالة التعليل فإن عِلَّة أداء (حيث) دلالة التعليل توجب فتح همزة (إن) بعدها، وتمنع كسر الهمزة في تركيب (حيث إن) وتراه تجاهلًا لدلالة التعليل ، فضلًا عن كونه تعارضًا بين الإضافة والابتداء، وهذا الحكم بوجوب فتح همزة (إن) بعد (حيث) التعليلية قرينة لفظية توضح الدلالة عند اللبس، وهو حكم يخالف ما ذهب إليه الآخرون في هذه المسألة.

سادسًا : التحرير البلاغي لاستعمال (حيث) مع (إن) أو (أن) :

من مقتضيات علم البلاغة أداء المعنى بوضوح دون لبس، ليناسب الأسلوبُ السياقَ الموضوع فيه، كما يُشترط للأسلوب البليغ فصاحة التركيب كسلامته من الثقل اللفظي أو الخلل

المفضي للتقعيد ، ولذلك يدخل استعمال (حيث) في النظام البلاغي ؛ فعند استعمال (حيث) قد تتّضِح الدلالة الأصلية أو المجازية من خلال القرينة المعنوية بدون قرينة لفظية، مثل وضوح دلالة الظرف في : "يجلس الضيف حيث ينتهي به المجلس"، ووضوح دلالة التعليل في : "يدخل المؤمن الجنة حيث أخلص لربّه" ، فتتحقق سلامة الأداء من غير دخول (حيث) على (أن) ، أما استعمال (حيث) مع (أن) فلا بد فيه من مراعاة الضوابط التي تمنع من اضطراب المعنى أو حدوث ثقلٍ لفظيٍ ، هذه الضوابط هي:

- لا يجوز دخول (حيث) الظرفية على (إن) بكسر الهمزة لأن الجملة التي بعد (إن) ابتدائية، وهو ما يتناقض مع إضافة (حيث) إليها، وقد خلا الاستعمال الفصيح لـ (حيث) الظرفية من دخولها على (إن) كما يُحدِث دخول (حيث) على (إن) ثقلًا لفظيًا تجنبته أصول اللغة بأن جعلت كسر الهمزة في (إن) للابتداء وليس في صلة الإضافة.
- لا يجوز دخول (حيث) الظرفية على (أن) بفتح الهمزة لأن فتح الهمزة قرينة لدلالة التعليل، وهي دلالة تختلف عن دلالة الظرفية، فدخول (حيث) الظرفية على (أن) بفتح الهمزة مخالفة للقاعدة المستمدّة من الاستعمال التي تقول بفتح الهمزة عند التعليل، ولبس في المعنى عند الاحتياج إلى تحديده، مثل : "عالج الطبيب الرجل حيث أصابته السيارة" فدلالة (حيث) هنا ظرفية ما لم تُصرف عن الظرفية بقرينة معنوية أو لفظية، والقرينة اللفظية مثل : "عالج الطبيب الرجل حيث أن السيارة أصابته" وقد يحتاج التعليل إلى التأكيد ولذا يقبل تأكيده بـ (أن) ، فدخول (حيث) على (أن) بفتح الهمزة جعلها تعليلية، ولا يجوز أن تكون (حيث) ظرفية وتدخل على (أن).
- لا يجوز دخول (حيث) التعليلية على (إن) بكسر الهمزة لأن (إن) بكسر الهمزة لابتداء الجملة؛ وهو يناقض إضافةَ (حيث) ودلالةَ التعليل اللتين تربطان (حيث) بالجملة التي بعدها دون فصل بعلامة إبتداء، فكلاهما يوجب اتصال (حيث) بما بعدها دون انقطاع.
- وجوب دخول (حيث) التعليلية على (أن) بفتح الهمزة عند الاحتياج إلى توضيح دلالة التعليل دفعًا للبس، مثل : "ضع السلاح حيث أن الرجل وضع سلاحه" إبعادًا لدلالة الظرف الموجودة في "ضع السلاح حيث الرجل وضع سلاحه" أو "ضع السلاح حيث وضع الرجل سلاحه" كذلك مثل : "خرج سعيد حيث أن معاذًا دخل" إذا كان المراد أنه خرج لدخول معاذٍ لعدم الرغبة في لقائه مثلًا، وليس المراد أن سعيدًا خرج من مكان دخول معاذ، وهو معنى الظرف في "خرج سعيد حيث دخل معاذ" ، ويلاحظ أن دلالة الظرف أكثر وضوحًا مع الجملة الفعلية لأن الظرف وعاء الحدث.

- يجوز دخول (حيث) التعليلية على (أن) بفتح الهمزة زيادة في إيضاح دلالة التعليل، إذ يكون التعليل مفهومًا ولكن أراد القائل زيادة التأكيد على معنى التعليل لداعٍ بلاغي كحاجة سياق الكلام لذلك أو تعبيرًا عن شيء في نفس المبدع أو المتلقي، مثل : "ما السبب وراء رواج هذه الرواية الرديئة؟! لعل ذلك لاسم مؤلفها، حيث أن له باعًا في السياسية" فيؤدي تركيب (حيث أن) في هذا السياق من تأكيد يناسب الحدس والشك ما لا يؤديه أسلوب "حيث له باع في السياسة" وهو أمر متروك للحس البلاغي بدواعي السياق.

وعليه فإنه لا يجوز كسر همزة (إن) مطلقًا بعد (حيث) الظرفية أو التعليلية ، ويُعدُّ ذلك عيبًا من عيوب الفصاحة التي تنتفي معها صفة البلاغة، كما أنه يجب فتح همزة (إن) بعد (حيث) التعليلية، ويجب ذكرها تحديدًا لدلالة التعليل عند التباس المعنى ، ويجوز ذكرها بما يقتضيه السياق من تأكيد أو توضيح.

الخاتمة :

فتح الله تعالى في هذا البحث أبوابًا لم أكن أتخيل أن تسوقني إليها (حيث) إذ بفضله سبحانه وجد البحث ما يُكْمِل به غيره ، وأراه مزيدة يحتاج إليها الفكر اللغوي.

فيُرجع البحث تنوَّع استعمال (حيث) في القرآن الكريم لتحقيق أغراضٍ بلاغيةٍ تربط بين نمط الاستعمال والنص الوارد فيه، مثل استعمال (حيث) و(من حيث) في خطاب واحد لمناسبة (من حيث) لدلالة الانتقال ، أو تقدُّم (حيث) والجملة الثانية على الأولى لانفراد النص بالحديث عن تقديم المكان باستقبال القبلة.

وهذا الاستعمال المجازي لـ (حيث) في القرآن الكريم لا يجد له الباحثُ محاذاة في غير القرآن الكريم، فمع وجود الصلات الدلالية فيما بين انحرافات الاستعمال ؛ تجعل الاستعمالات المجازية أشبه بحلقات متصلة أو متسعة بعضها من بعض، إلا أن الدرس اللغوي لم يرصد تنوّع استعمال (حيث) ولم يربط بين هذا التنوّع ومضمون النص ، وبديلًا عن ذلك نجد الاضطراب والحذر في توصيف الاستعمال المجازي لـ (حيث) في القرآن الكريم، فعندما يلاحَظُ وجود عدولٍ في الاستعمال لا تتعدَّ الملاحظة الاختلاف في مجازية التركيب (الجملة) في الآية دون الربط بين دافع العدول في التركيب والنص الوارد فيه، وكذلك كان التعامل مع نوع آخر من الاستعمال المجازي لـ (حيث) وهي (حيث) التعليلية التي شاع استعمالها مبكرًا منذ القرن الرابع الهجري، وهو مجاز سوّغ تركيب (حيث أن) بفتح الهمزة، وتصدَّى له جمهور النحاة ، ساعدهم في ذلك تجاهل علماء البلاغة لفلسفة المجاز وعلاقات الاستعمالات المجازية فيما بينها (والتي لا أرى لها في الدرس البلاغي تحليلا إلا ما يمكن أن نلاحظه من فكرة معجم أساس البلاغة للزمخشري الذي يؤسس لمبدأ الصلات بين الأصل والاستعمال المجازي ويرصد التطور الدلالي إلى المجاز) ولقد أدّى تجاهل فلسلفة المجاز وطور نموه إلى تجاهل التغيير الدلالي من (حيث) الأصلية الظرفية إلى (حيث) المجازية التعليلية ، ولو أنها أخذت موقعها تحت ضوء فلسفة المجاز لكان الاعتراف بمشروعيتها وتقبل تركيبها اللغوي، بل والاستغلال البلاغي الأمثل لنمط من أنماط الانحراف.

إن الأهم من ملاحظة مجازية الاستعمال والخطأ في توصيفه، أن ندرك من خلال هذا البحث وجود سمتين مترابطتين في العقلية العربية جَلبتْ إلى الفكر العربي كثيرًا من العوار على الرغم من تَوقُّده وجُهده ، هما : التبعية الفكرية ، والحذر المفرط من التجديد ، إذ تجِدُ غلبة نقل اللاحق لفكر السابق دون تمحيصٍ يضع كل فكرة في مخاضها الزمني ، بل تتابَعَ النقل

بكسوة التقديس ، وأصبح الفكرُ البشريُ المنقولُ قاعدةً يُغفَل معها احتمال الخطأ أو إقامة القياس على أساسِ تغَيُّر المحصلات بتغَيُّر المقدمات، ودفعتْ هذه النظرةُ المقدسةُ العقلَ العربيَ إلى رفض الجديد كلحنٍ أو بدعٍ لا يُنظر في صحته أو منطقيته أو دوافعه، فاستراح إلى النقل مجافيًا سنة التطور ، ومعاديًا للفكر الجديد.

الحمد لله ربِّ العالمين

التعليق والتوثيق

[1] انظر: ابن هشام الأنصاري ، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف (٧٦١هـ) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق : د.مازن المبارك ومحمد علي حمدالله ، دار الفكر – بيروت ، الطبعة السادسة ، ٣٤٩

[2] الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر (٦٠٦هـ) التفسير الكبير، دار إحياء التراث ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ٤٢٠/٦

[3] أبوحيان ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (٧٤٥هـ) البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل الناشر، دار الفكر ، بيروت ، طبعة١٤٢٠هـ ، ٤٢٦/٢

[4] الألوسي ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (١٢٧٠هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٥١٧/١

[5] انظر: الإسكافي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٤٢٠هـ) درة التنزيل وغرة التأويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٥ ، والكرماني ، محمود بن حمزة بن نصر (٥٠٥ هـ) أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن ، تحقيق غبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة ،٧٠، والرازي ، التفسير الكبير، ٥/٣ ، وابن جماعة ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله (٧٣٣هـ) كشف المعاني في متشابه المثاني ، تحقيق : د. محمد محمد داوود ، دار المنار ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٩٦ ، والزركشي ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله ، (٧٩٤ هـ) البرهان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٢٨/١

[6] الإسكافي ، درة التنزيل ، ٥

[7] ابن جماعة ، كشف المعاني ، ٩٦

[8] ابن الزبير ، أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي ، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ، تحقيق : د. سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٨٩/١

[9] ابن جماعة ، كشف المعاني ، ٩٦

[10] رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الآذان ، باب فضل صلاة الجماعة برقم (٦٤٥) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاة الجماعة برقم (٦٥٠)

[11] الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ٥٥٨/٤

[12] الزمخشري ، الكشاف ، ٥٥٨/٤

[13] انظر: أبو السعود ، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (٩٨٢هـ) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ٨/ ٢٦٣ ، الألوسي ، روح المعاني ، ٣٣٤/١٤

[14] الزمخشري ، الكشاف ، ٥٥٩/٤

[15] الرازي ، التفسير الكبير ، ٥٦٤/٣٠

[16] ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ، ١٧٥/٨

[17] انظر: الزمخشري، الكشاف، ٩٥/٤ ، الرازي، التفسير الكبير، ٣٩٥/٢٦، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧٣/٧، أبو السعود، إرشاد العقل السليم ، ٢٢٧/٧ ، الألوسي ، روح المعاني، ١٩٤/١٢

[18] الألوسي، روح المعاني، ١٩٤/١٢

[19] نفسه، ٧٤/٩

[20] الفيروز أبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة ، مادة (رخو) ١٢٨٧

[21] انظر : الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضَّل (٤٠٢هـ) معجم مفردات الفاظ القرآن الكريم ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت ، طبعة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠ م ، مادة (رخو) ١٤٦ ، وابن منظور ، ابو الفضل محمد بن مكرم بن على الأنصاري (٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، مادة (رخو) ٣١٥/١٤

[22] ابن منظور ، لسان العرب ، ٣١٤/١٤

[23] نفسه ، ٣١٥/١٤

[24] الأخفش، أبو الحسن البصري المعروف بالأخفش الأوسط (٢١٥هـ) معاني القرآن ، تحقيق : د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٤٩٣/٢

[25] الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري ، (٧٧٠هـ) ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تحقيق : د. عبد العظيم الشناوي ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، مادة (رخو) ٢٢٤/١

[26] الألوسي ، روح المعاني ، ١٩٤/١٢

[27] انظر : الزمخشري ، الكشاف ، ٩٥/٤ ، ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٧٣/٧

[28] الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، (١٢٠٥ هـ) تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، طبعة وزارة الإرشاد الكويتية ، ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥م ، مادة (صوب) ، ٢١١/٣

[29] الكَلْحَبَة العُرَني من شعراء الجاهلية اسمه : هبيره بن عبد المناف بن عرين، انظر : المفضليات ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر و عبد السلام أحمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ٣١

[30] نص ما جاء في شرح المفضليات : "تمضيهم: بفتح التاء بمعنى تمضي فيهم وتنفذ، عدى الفعل بنفسه مع لزومه، وهو مما أهملته المعاجم. ما تريم : ما تغادر مكانها ، يقول إذا تنفذهم في القتال تعود عليهم لتقتل بقيتهم، ثم أثقلتها الجراح فلم تبرح" ٣٣

[31] د.محمد نديم فاضل ، التضمين النحوي في القرآن الكريم، دار الزمان ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى، ٢١٧/٢

[32] سيبويه ، عمرو بن عثمان (١٨٠هـ) الكتاب ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط : الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ٣/ ٥٦

[33] المبرد ، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (٢٨٥هـ) المقتضب ، تحقيق : محمد عبد الخالق عظيم، عالم الكتب ، بيروت ، ٤٧/٢

[34] د. يوسف جمعة عاشور ، (حيث) في القرآن الكريم ، استعمالًا ودلالة ، مجلة الجامعة الإسلامية ، سلسلة الدراسات الإنسانية ، المجلد السادس عشر، العدد الأول ، يناير ٢٠٠٨ ، ١٥٦

[35] الفرّاء ، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (٢٠٧هـ) معاني القرآن ، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر ، الطبعة الأولى، ٨٥/١ وقد ذكر الفراء (حيث) مع أسماء الاستفهام ، وهو أمر غير مفهوم ، وقد جاء في الهامش ((كذا فى الأصول، ولا تعرف هذه الأداة فى أدوات الاستفهام)) إلا أنه أجاز فيها الشرطية.

[36] الألولسي ، روح المعاني ، ٤١٤/١

[37] الإسكافي ، درة التنزيل ، ٢١

[38] انظر : ابن الزبير ، ملاك التأويل ،٢٤٢،٢٤٣/١

[39] ابن الزبير ، ملاك التأويل ،١/ ٢٤٤

[40] السمين الحلبي ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (٧٥٦هـ) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، تحقيق : الدكتور أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ١٣٧/٥ ، ولعل رأي الفارسي موجود في كتبه المفقودة ، إذ لم أجده فيما وصلنا وأمكنني الاطلاع عليه .

[41] ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١٧٦

[42] كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام علي بن إبراهيم بن سعيد، أبي الحسن الحوفي المصري المتوفي (٤٣٠هـ) لم يُحقَّق كله ، وما تم تحقيقه حُقِّق في رسائل علمية لم تنشر ، ماعدا تفسيره لسورة يوسف، والنسخة الموجودة بدار الكتب المصرية منها أجزاء مفقودة ، ولم أجد فيها تفسير سورة الأنعام التي وردت فيها الآية .

[43] ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق :عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، لكنه لم يذكر إعراب (حيث) وإنما تحدث عن تقدير فعل عامل فيها بدل (أعلم) فقال : " والعامل في حَيْثُ فعل تقديره: يعلم حيث" ٣٤٢/٢

[44] التبريزي ، يحي بن علي المعروف بالخطيب التبريزي توفي سنة (٥٠٢هـ) وكتابه هو : الملخص في إعراب القرآن ، ولم يصل منه إلا مجلدٌ واحد فيه إعراب السور من يوسف حتى المؤمنون .

[45] أبو حيان ، البحر المحيط ، ٦٣٧/٤

[46] فمثلًا يقَسِّم ابن الأثير المجاز إلى التشبيه والاستعارة والاتساع أو التوسع، انظر: ابن الأثير ، ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم (٦٣٧هـ) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥،١/٧٤ ، ٣٤٣/١

[47] انظر : الزمخشري ، الكشاف ، ٢/ ٦٣

[48] أبو البقاء العبكري ، عبد الله بن الحسين بن عبد الله (٦١٦هـ) التبيان في إعراب القرآن ، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار النشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ٥٣٧/١

[49] القرطبي، أبو عبد اللَّهِ محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي (٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ٨٠/٧

[50] النسفي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (٧١٠هـ) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تحقيق : يوسف علي بديوي ، دار الكلم الطيب، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٥٣٥/١

[51] السمين الحلبي ، الدر المصون ، ١٣٨/٥

[52] الألوسي ، روح المعاني، ٢٦٦/٤

[53] د. يوسف جمعة عاشور ، (حيث) في القرآن الكريم استعمالًا ودلالة ، ١٦٥

[54] عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م ، ١٧٤

[55] انظر : د. صلاح فضل، علم الأسلوب، ، دار الشروق، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، ص ٢١٢

[56] هي مقارنة لا موازنة؛ لأن الموازنة تهدف إلى المفاضلة بين أسلوبين، أما المقارنة تهدف إلى تحديد المعنى الدقيق لكل أسلوب، ولكل أسلوب المقام المناسب له، دون مفاضلة وإنما يختصُّ كل أسلوب بدلالته.

[57] د. صلاح فضل ، علم الأسلوب ، ٢٠٩

[58] نفسه ،٢١١

[59] انظر: نفسه ، ٢٠٨
[60] نفسه ، ٢١١
[61] عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (٤٧١هـ) أسرار البلاغة ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ،الطبعة الأولى، ٤١٧
[62] د. عودة خليل أبوعودة ، (حيث) بين ثبات قواعد اللغة العربية وتطور صور الاستعمال، مجلة جامعة دمشق ،المجلد الرابع والعشرون ، العدد الأول والثاني عام ٢٠٠٨م ، ٣٧ وانظر : صفحة ٤٢، ٦٧، ٧٠
[63] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، ٣٩٥
[64] د.محمد عبد المنعم خفاجي، د. محمد السعدي فرهود، د. عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٦٢
[65] الجاحظ ، عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٤٢٥/٢
[66] نفسه، ٣٢٧/٢
[67] أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله (٣٩٥هـ) الفروق اللغوية ، تحقيق : محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة ، الطبعة الأولى، ٥٨
[68] د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العلمية للنشر، الطبعة الأولى، ٦٩
[69] نفسه، الصفحة نفسها، والمقولة ذكرها ابن جني ، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ) الخصائص ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الرابعة ، ٤٤٩/٢ والزمخشري في الكشاف ٤٠/٤ في تفسيره لسورة الصافات الآية (٢٨)
[70] د. محمد عبد المطلب ، البلاغة والأسلوبية ، ٧٥
[71] أبو حيان ، البحر المحيط ، ٦٣٧/٤
[72] د. عودة خليل أبوعودة ، (حيث) بين ثبات قواعد اللغة العربية وتطور صور الاستعمال، ٤٢
[73] محمد بن سعد بن منيع الزهري (٢٣٠هـ) الطبقات الكبير، تحقيق د. على محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٥٤/٦
[74] نفسه، ٦٢/٦
[75] نفسه ٦٧/٦
[76] الجاحظ ، الحيوان ، ٦٦/٥
[77] نفسه، ١١/٧
[78] نفسه، ٢٨٧/٥ وانظر: ٢٨٣/٥، ٢٨٣/٥ ، ٣٦٠/٦
[79] سنة وفاة أبي هلال غير محددة بالضبط وأشهرها (٣٩٥هـ) وأول القرن الخامس الهجري، ولا خلاف في كونه أحد علماء القرن الرابع الهجري ،انظر : د. بدوي طبانة ، أبو هلال العسكري (مقاييسه البلاغية والنقدية) دار الثقافة ، لبنان ، الطبعة الثالثة ،٢١
[80] أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، ٥٨
[81] نفسه ١٣٠
[82] نفسه ٢٠٢
[83] نفسه ٢٢٤
[84] مختلف في تاريخ وفاة الراغب الأصفهاني، غير أن تاريخ (٤٠٢هـ) هو ما رجحه د. عمر عبد الرحمن الساريسي في مقال له بعنوان (رأي في تحديد عصر الراغب الأصفهاني) منشور في موقع مجمع اللغة العربية الأردني، وهذا التاريخ هو الذي اعتمده محقق الكتاب (يوسف الشيخ محمد البقاعي) الذي بحثتُ فيه عن استعمال (حيث) .
[85] انظر: الراغب الأصفهاني ، معجم مفردات الفاظ القرآن ، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل في الصفحات الآتية: ٢٣، ٢٣، ٣٦،٥١، ٧١، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١٣٢، ١٣٥، ١٤٣، ١٤٥، ١٦٢، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٢٧، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٦٨، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٣٢، ٣٤٠، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٨٥، ٣٨٥، ٣٩٠، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٢، ٣٩٤، ٤١٩،٤٠٣
[86] نفسه، ٧١
[87] نفسه ، ٢٨٩
[88] نفسه ، ٣٦٢
[89] نفسه ، ٣٩٤
[90] انظر : عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، ٢٠، ٤١، ٤٩، ٥٩، ٦١، ٦٢، ١٩٨، ٣١٤، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٥٠، ٣٥٠، ٣٥٩، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٨، ٣٦٨، ٣٦٨، ٣٦٨، ٣٧٢، ٣٧٨، ٣٧٨، ٣٨٧، ٣٧٩، ٣٧٩،٣٧٩، ٣٧٩،٣٧٩،٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٧، ٣٨٧، ٤٠١، ٤١٩، ٤١٩، ٤١٩، ٤١٩ ، ٤٢٠،٤٢٠، ٤٢٢
[91] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ٥
[92] نفسه، ٢٠
[93] نفسه، ٤١
[94] نفسه، ٣٧٢
[95] نفسه، ٤٢٢
[96] انظر: أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد الطوسي (٥٠٥هـ) إحياء علوم الدين، دار المعرفة ، بيروت، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل في الجزء الأول : ١٢، ١٦، ١٨، ٢٣، ٢٤، ٢٤، ٢٤، ٣١، ٦٩، ٧٨، ٨٦، ٩٤، ١٠٠، ١١٠،

١١٣، ١١٣، ١٦٠، ١٦٧، ١٩٢، ١٩٢، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٠٢، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٢٩، ٢٢٩، ٢٦٧، ٢٦٨،
٢٧٠، ٢٨٠، ٢٨٥

[97] نفسه، ١٢/١

[98] نفسه، ١٠٠/١

[99] نفسه، ٢٠٢/١

[100] انظر: الزمخشري، الكشاف ، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل في الجزء الأول: ٣، ١٠، ٢١، ٣٧، ٥٧،٥٧، ٥٨، ٩٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٣، ١٢٥، ١٤٩، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٠، ١٧٩، ١٨٣، ١٩٠، ٢٠٨، ٢٣٢، ٢٥١، ٢٦٨، ٢٩٠، ٢٩٠، ٢٩٧، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٤٤، ٣٤٧، ٣٤٧، ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٣، ٤٠٥، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١١، ٤١٤، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٥٢، ٤٦٢، ٤٧١، ٤٩٤، ٥٠٣، ٥١١، ٥١٧، ٥٣١، ٥٣٥، ٥٥٥، ٥٦٠، ٥٧٧، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٩٣، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٦، ٦١٧، ٦٦١، ٦٦٥

[101] نفسه، ٥٨/١

[102] نفسه، ١٧٠/١

[103] نفسه، ٢٦٨/١

[104] نفسه، ٥٠٣/١

[105] انظر: الرازي، التفسير الكبير ، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل في الجزء الأول: ١٣٧، ١٤٤، ١٧٧، ١٧٧، ١٨٦، ١٩٩، ١٩٩

[106] نفسه ، ١٣٧/١

[107] نفسه، ١٧٧/١

[108] نفسه ١٩٩/١

[109] انظر : ابن الأثير، المثل السائر ، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل في الجزء الأول : ٤١، ٤٢، ٧٨، ٩٩، ١٤٠، ١٩٠، ٢٤٨، ٣٠٢، ٣٥٩، ٣٧٠، ٣٧٨ وفي الجزء الثاني : ٧، ١٩، ٢٩، ٤٤، ٤٨، ٦٠، ٧٠، ٧٠، ٧٦، ١٦٥، ١٨٧، ٢٥٢، ٢٦٤، ٢٨٣، ٣٢٠، ٣٣١، ٣٣٧، ٣٥٧، ٣٨٣

[110] نفسه ٣٧٨/١

[111] نفسه ١٦٥/٢

[112] نفسه ٣٢٠/٢

[113] نفسه ١٩٠/١

[114] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل: في الجزء الأول: ١٣٥، ٣١٨، ٣١٩ في الجزء الثاني: ٢٨، ١٤٤، ١٦٩، ٢٠٧، ٣١٧، ٣٥٤، ٣٩٤ في الجزء الثالث: ٢٩، ٣٠، ١٩٦، ٣٥١، ٣٥١، ٣٥٨، ٣٧٥، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٣

[115] نفسه، ١٣٥/١

[116] نفسه، ٢/ ١٦٩

[117] نفسه، ٣٠/٣

[118] انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل في الجزء الأول: ٢٢٧، ٣٨٤، ٤٠٣، ٤١٧، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٣، ٤٧٦، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٤٢، ٦٥٥

[119] نفسه، ٣٨٤/١

[120] نفسه، ٤٤٥/١

[121] نفسه، ٤٤٠/١

[122] نفسه،١٢٦/١

[123] نفسه، ٧٠١/١

[124] انظر: الألوسي، روح المعاني ، مواضع (حيث) التي تفيد التعليل في الجزء الأول: ١٦، ٢٠، ٢٩، ٣٣، ٣٣، ٣٣، ٣٩، ٤٦، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٦٠، ٦٢، ٦٨، ٧٨، ٩٣، ١٠٠، ١٠٢، ١١٣، ١١٤، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١١٩، ١٢٢، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٥، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، ١٤١، ١٤٣، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٨، ١٧٦، ١٧٨، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٩، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٩، ٢٣٩، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦٢، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٩، ٣١٠، ٣١٠، ٣١٠، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٤، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٣، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٥٩، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٦، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦، ٤٣٦، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٥٢، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٦، ٥٠٤، ٥١٨، ٥٢٢، ٥٢٢، ٥٢٢، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٦، ٥٢٩، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣١، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٥٨، ٥٦٠، ٥٦٣، ٥٦٣، ٥٦٣

[125] نفسه، ٣٣/١

[126] نفسه، ١١٩/١

[127] نفسه، ١٩٣/١

[128] انظر: نفسه، ٣٧/١، ٧٠، ٩٣، ١١٧، ١١٨، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٨٨، ٣٦٢

[129] نفسه، ١١٧/١

[130] نفسه، ١٢٢/١
[131] أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى (١٠٩٤هـ) الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ٣٩٩/١
[132] د. محمد تقي الدين الهلالي (١٤٠٧هـ) تقويم اللسانين، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الثانية ، ٥٣
[133] الشيخ بيت الله بيات، هامش كتاب معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءا من كتاب السيد نور الدين الجزائري (١١١٢هـ) تحقيق: الشيخ بيت الله بيات ومؤسسة النشر الإسلامي ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ، إيران، الطبعة الأولى ، ٨٧/١ ، وهو تعليق على استعمال الجزائري لـ (حيث) للتعليل.
[134] ابن هشام الأنصاري ، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف (٧٦١هـ) شرح شذور الذهب ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع ، القاهرة ، ٢٠٠٤م ، ٢٣٣
[135] ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١٧٦/١
[136] انظر: د. عباس حسن ، النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة، ٦٥٨/١
[137] ابن هشام الأنصاري ، شرح شذور الذهب ، ٢٣٣
[138] السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٨١هـ) نتائج الفكر في النحو ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الجواد، الشيخ علي محمد معوّض، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٠٦
[139] ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١٧٦/١
[140] نفسه ، شذور الذهب ، ٣٤٣
[141] نفسه ، قطر الندى وبل الصدى ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤م ، ١٦٣
[142] ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله العقيلي (٧٦٩هـ) شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة الرابعة عشرة ، ٣٥٤/١
[143] ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١٧٦/١
[144] نفسه ، الصفحة نفسها.
[145] السهيلي ، نتائج الفكر ، ٧٤
[146] أبو البقاء العبكري ، عبد الله بن الحسين بن عبد الله (٦١٦هـ) اللباب في علل البناء والإعراب ، تحقيق : د. عبد الإله النبهان ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ٥٤/٢
[147] ابن عقيل ، شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ، ٣٥٠/١
[148] السهيلي ، نتائج الفكر ، ٢٦٦
[149] نفسه ، ٢٦٧
[150] انظر : د. عباس حسن ، النحو الوافي، ٧٩/٣
[151] انظر : د. شوقي ضيف، تيسيرات لغوية، دار المعارف، ١٩٩٠، ١٤٤
[152] انظر : مجموعة القرارات العلمية في خمسين عامًا (قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة) الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، ١٤٠١٤هـ ١٩٨٣م ، الدورة التاسعة والأربعون ، القرار (١٣١) صفحة ١٦١ ونصه: ((إضافة (حيث) إلى الإسم المفرد : يأنس بعض المتحدثين بمثل قولهم : الكتاب رخيص من حيث ثمنِه، بجر (ثمن) والمعتمد من القواعد إضافة (حيث) إلى الجمل اسمية وفعلية، واللجنة ترى إجازة إضافتها إلى الاسم المفرد وجره بعدها قياساً في ذلك على أخواتها من الظروف المكانية، وأخذاً برأي الكسائي ، وما احتج به من الشعر؛ فيجوز أن يُقال: بادِر إلى حيث العملِ الجاد، ولا تمار الحكم من حيث العدلِ ، وعلى ذلك فإضافة (حيث) إلى الاسم المفرد بعدها سائغة قياسياً واستعمالاً)) .
[153] د. شوقي ضيف، تيسيرات لغوية، ١٤٤
[154] د.عباس حسن ، النحو الوافي، ٦٥٨/١
[155] انظر: د. عرفة حلمي عباس، تصويبات لغوية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٦١
[156] محمد محيي الدين عبد الحميد، منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب ، دار الطلائع ، القاهرة ، ٢٠٠٤م ، ٢٣٣
[157] د.عباس حسن ، النحو الوافي، ٦٥٨/١
[158] نفسه ، ٨٠/٣
[159] انظر : د. شوقي ضيف ، تيسيرات لغوية ، ١٤٤، وقرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته التاسعة والأربعون (السابق ذكره)
[160] انظر : د. عودة خليل أبوعودة ، (حيث) بين ثبات قواعد اللغة العربية وتطور صور الاستعمال .